الحلاج

شهيد التصوف الإسلامي

طه عبد الباقي سرور

الحسين بن منصور

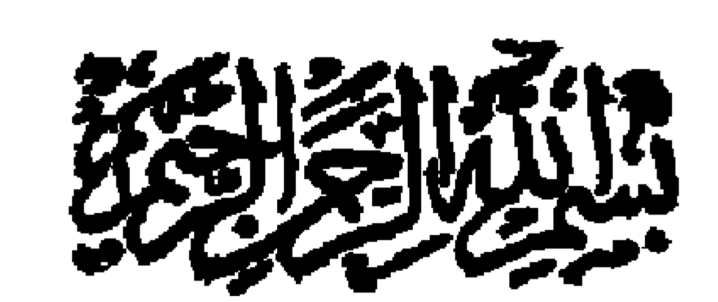


(٢٤٤ هـ — ٣٠٩ هـ)

المكتبة العلمية ومطبعتها
٥٠ شارع الجمهورية بالقاهرة

الطبعة الأولى
القاهرة ١٩٦١

مطبعة مصر بالقاهرة ٥٧٧ شارع بورسعيد أمام مستشفى الحوض المرصود



بين يدى الكتاب

كان الحلاج ، نبأ عظيما ، فى أفق التصوف الإسلامى ، ولا يزال الناس يتساءلون عن النبأ العظيم ، الذين هم فيه مختلفون .

هبط به خصومه إلى هاوية السحر والشطح الآثم ، المتطلع إلى فناء وخلود ، عن طريق الاتحاد والحلول ! !

وارتفع به محبوه ، إلى أفق البهاء المقدس ، وإلى معارج البطولة الخارقة للناموس ! !

فالحلاج عند شعراء ما وراء النهر ، بطل ملحمة الخلود الكبرى ، ورائد الحب الإلهى ، الذى صعد على معارج الشوق والوجد ، إلى سدرة النور السنى ، حيث يغشى هناك القلب ما يغشى من أذواق وهبات ، ومعرفة وتجليات .

والحلاج فى أقلام رجال الاستشراق ، يربطه خط نفسى مضىء بالمسيح عليه السلام ، إنه الشهيد الولى الربانى ، الذى تطلع إلى ميلاد كلمات الله المباركة فى قلبه .

أما رواة التاريخ الصوفى ، فقد دندنوا طويلا ، حول كراماته وآياته ، وتحدثوا فأطالوا الحديث ، عن عجائب مصرعه ، وما اقترن به من خوارق ، ثم ذهب ببعضهم الخيال ، فنسجوا قصة روحية فاتنة ، تدور حول جثته

التي أحرقت بعد صلبها ، ثم ألقى في دجلة برمادها ، فأصبحت كل جُرْعة ، من ماء هذا الرماد المبارك ، تنجب شيخاً من شيوخ الصوفية في بغداد ، وتصوغ قطباً من أقطاب المعرفة في العراق !!؟

لقد أسرف خصوم الحلاج في بغضه وتجريحه ، وأسرفت الخلافة العباسية في اضطهاده وتعذيبه ، وأسرفت إسرافاً جنونياً وحشياً فيما أعدت من عذاب غليظ عنيف ليوم مصرعه ، وفيما أقامت من ستار حديدي لحجب سيرته عن الحياة ، وفيما اصطنعت لتشويه تراثه في التاريخ !!

فأسرف أنصاره أيضاً في حبه وتقديسه ، وفي الحديث عن أسراره ونفحاته وعلومه وعجائبه ! ؟

ومن ثم انطلق الخيال الأسطوري التاريخي ، يوشي هذه الصورة العجيبة المتناقضة ، ويريق عليها مزيداً من الجمال ، ومزيداً من الغموض !!

ثم أخذ ينسج حولها مشاهد ملونة متنافرة ، تتعاقب وتتواكب ، حافلة بأروع ما في الدنيا من عظمة الروح والإيمان حيناً ، وبأقسى ما في قاموس الضلال ، من إلحاد ومروق أحياناً .

وبعد مرور قرابة ألف عام على المأساة الحلاجية ، لا يزال النبأ العظيم يتساءل فيه الناس وهم مختلفون ! ؟

ولقد فتنت بسيرة الحلاج كما فتن بها غيري ، وصاحبته طويلا في تقلباته ومعارجه ، وناجيته وذهبت معه في انطلاقاته ، وتحسست ما في عواطفه وقلبه ، وحاولت أن أدنو من شوقه ووجده ، وثورته وتفكيره ، وأن أجد الخط الروحي الخفي ، الذي يربط ما بين المتناقضات التي تزخر بها حياة رجل يذيبه ويحرقه الوجد الملح العنيف ، فينطلق في الفلوات

والمقابر والآفاق ، مذهولا مأخوذاً ؛ حتى يتذوق فى نشوة رياضاته مقاماً من مقامات القرب ، ويرى نوراً من أنوار الأنس والقدس ، ويغرق فى بهاء القرب ، وأنوار الأنس ، ويسبح ويسبح فى معارج حبه ، حتى يذهل عن نفسة ، وعن وجوده ، وعن كل ما يحيط به ، فلا يرى فى الكون الفسيح ، إلا وجـــه الله القريب الحبيب ، الذى يذوب أمام سبحات أنواره ، كل شيء ، فلا يبقى إلا هو ، ذو الجلال والإكرام ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

وهو مع هذا الوجد المحرق ، وبعد هذا الفناء المذهل ، يطيل التأمل والتفكر ، فى واقع الأمة الإسلامية ، فيرى انحرافها عن رسالتها ، وابتعادها عن عبادتها ، فيطلق صيحة الثورة على الخلافة المنحرفة ، وينشر الدعوة ، ويعـــد العدة ، لإقامة حكومة الأقطاب الروحانيين ، التى يسوس أمرها الأولياء والأبدال ، والتى تحيل الكون إلى محاريب للصـــلاة والتأمل ، وذكر الله .

ولقد عانيت من قبل تجربة الدراسات الصوفية ، وأعلم ما تحتاجه من جهد ، وما يصاحبها من إرهاق ، فهى لا تزال بكراً لم تمهد سبلها ، ولم تعبد طرقها .

وأشهد أننى لم أجد رهقاً ونصباً ، فى دراسة صوفية ، كما وجدت فى دراسة الحلاج ، فقد تمزق تاريخه ، وتبعثرت آثاره ! ؟

وأشهد أيضاً ، أننى لم أجـــد متاعاً للقلب ، وأنساً للنفس ، وزاداً للتفكير ، كما وجدت فى هذه الدراسة .

وللحلاج سحر فى كلماته ، وسحر فى حياته ، إنه من الشخصيات التى

تملك قوة الإيحاء ، وقدرة الاستهواء ، ولهذا فسواء كنت معه ، أو كنت عليه ، فلا تملك نفسك ، من أن تحبه وتهواه .

ولقد حاولت جاهداً ، أن لا تتأثر هذه الدراسة بهذا السحر ، وأن تنطلق إلى هدفها ، مجردة من كل عاطفة ، إلا عاطفة البحث عن الحقيقة ، الحقيقة المجردة لذاتها .

وبعد : فهذا هو الكتاب الأول الذى يصــــدر عن الحلاج فى لغة الضاد ، نقدم فيـــه للعالم الإسلامى ، صورة حية ، من صور الحياة الروحية ، فى أزهى عصورها ، ونصور فيه حياة رجل من أئمة هذه الحياة الروحية ، بل لعله نسيج وحده فى هذه الحياة الغنية برجالها وأقطابها .

فإن أوفى الكتاب بعهده ، فقدم الوجه الصحيح ، للرجل الذى تساءل الناس عن نبأه واختلفوا فى أمره ، فنسجد لله شكراً ؛ على ما هدى وألهم .

وإن عجز الكتاب عن الوفاء بعهـــده ، فحسبه أنه محاولة أخلصت وجهها لله ؟

طه عبد الباقى سرور

القاهرة { ١٣٨٠ هـ
١٩٦١ م

شعاع على التاريخ

« ... بأية حماسة وحمية وجدانية قام
هـذا العاشق الجسور برأسه كيما يظفر
بجوهرة الجمال الإلهى » .

فريد الدين العطار

منذ أكثر من ألف عام ، تركز سمع الدنيا وبصرها ، على الخاتمة الفاجعة ، لأعجب صراع شهده تاريخ الفكر ، وتاريخ الحياة الروحيـة فى الإسلام .

وتساءل الناس عن النبأ العظيم ، وهم فى غمرة ذاهلة من هول ما يترامى إليهم من همسات وأحداث ، لقد غامرت الخلافة العباسية وقامرت بوجودها ومكانتها فألقت من أعلى مآذن بغـداد برماد جثة رجل . . . عذب ، وصلب ، وحرق ، فى مشاهد مسرحية وحشية ، لا تمت إلى الإنسانية ، أو الآدمية ، بسبب أو نسب .

وحملت أجنحة الهواء ذرات الرماد الشهيد إلى الآفاق ، ومن ثم بدأ تاريخ عجيب رائع ، ونبتت حياة سامقة شامخة ، فقد تحولت كل ذرة من ذرات هذا الرماد ، إلى مئذنة ومنبر ، يتلى عليهما فى مسمع الدنيا ووجدانها وضميرها قصة هذا الشهيد ، وحياة هذا المصلوب ؟ ! !

ويالها من قصة ، ويالها من حياة ، أراق عليها الخلود فتنته وبريقه ، وأكسبها الاستشهاد سحره ونوره ، وأضفى عليهـا الحب الإلهى جلاله وعطره ، ومنحها مقام الفناء ، بقاء يعجز كل فناء . . .

ومنذ أكثر من ألف عام ، وقصة هذا الشهيد ، تعيش متلألئة مشرقة متجددة فى قلوب الناس وعواطفهم ، وتحيا مقنعة مبهمة ملهمة ، فى عقول المفكرين وأقلامهم ! ؟ أشبـــه ما تـكون باللحن الذى اهتزت أنغامه وتشابكت أوتاره ، ولـكنه مع هذا ، نغم فاتن شجى ، غنى ثرى بالإلهام والخيال والأحلام .

وتحولت القضية والمأساة إلى أسطورة مجنحة ، ترتاد الآفاق المتناقضة ، وتمشى مع الخيال الأسطورى إلى القمم العـالية السامقة ، المجللة بالضباب والسحاب ، فتزداد إبهاماً وغموضاً ، كما تزداد سحراً وبريقاً .

يقـــول المؤرخ الفرنسى ــ مويزو ــ : « إن التاريخ هو ذاكرة البشرية ، ولـكنها ذاكرة قد تضعف حينا ، وقد تصطنع الضعف أحياناً » .

ولقد كانت تلك الذاكرة ، أضعف ما تكون ، أو فرض عليها أن تكون أضعف ما تكون ، وهى تقدم للناس عبر القرون ، تاريخ الحلاج ورسالة الحلاج ..

لقد زيفت ذاكرة التاريخ عن عمـد خبيث ، وعن تدبير هادف ، واصطنعت صـــوراً خادعة مضللة زائفة ، لأعظم حقبة فى تاريخ المعرفة الصوفية ، ولأخطر رجل فى تاريخ الحياة الروحية .

ولقد عرفت جميع اللغات ، حياة الحلاج ومأساته ، وامتلأت حقائب التاريخ العالمى . بألوان من الأساطير ، حول فلسفته الروحية ، وتعددت فى التراث الإنسانى ، صور حبـه ومجاهداته القلبية ، وسبحاته الوجدية ، ولـكنها صور وشاها الخيال ، واعتنى فيهـا المصورون بالتلوين والظلال ، عناية طمست الحقائق ، وغيرت وجهها ، وشوهت لونها ، وانحرفت بها ، عن جوهرها ورسالتها .

ولقد تحاشى مؤرخو الحياة الروحية فى الإسلام هـذا المأساة وسرها

وما يدور حولها ، تحاشاها القدامى تحت طلال صيحات الرعب والهول ، التي أطلقها العباسيون ، مدمدمة حول الحلاج وتاريخـــه ، وحول من يلوذ به ، أو يترنم بلحونه وأهدافه ، حتى أن السراج الطوسى ، وهو معاصر للحلاج أو يكاد ، وهو أكبر المؤرخين للحياة الروحية ، وسير أعلامها ورجالها ، أهملها وتجاهلها ، مع جلالها ومكانتها .

وحتى أنه ليستشهد فى كتابه العظيم « اللمع » فى أكثر من خمسين موضعاً بكلمات الحلاج فى المعرفة والتصوف ، دون أن يذكر اسمه ، بل يصطنع تعبيراً عجيباً ، فيقول : قال بعضهم ! ؟ أو قال القائل ! ؟

وكذلك صنع المؤرخ الصوفى ، العلامة الكلاباذى فى كتابه « التعرف » فهو يروى كلمات الحلاج التى ترسم آفاق التصوف ، وتحدد مناهجه ، دون أن يذكر اسمه ، بل يصوغ تعبيراً بديعاً هادفاً بقوله « قال أحـــد الكبراء ؟ ! ! » .

وجاءت كتب الطبقات الصوفية ، فتحدثت فى إسهاب ، وفى إسراف عن كل ما يتعلق بالتصوف ورجاله ، وقادته وأعلامه ، ثم مرت سريعة خفيفة ، بسيرة الحلاج ، أو حومت حولها ، فى حـــذر مصطنع ، وتجاهل متعمد .

ثم جاء المحدثون من أصحاب الأقلام ، فوقفوا حيارى ذاهلين أمام المأساة الحلاجية ، أو العقدة الحلاجية ، فقـد زيفت تلك المأساة تزييفاً فنياً رائعاً ، فتقنعت أحداثها بالغموض ، واشتبكت صورها بالأهواء ، وتضاربت فيها الأقوال ، وامتلأت آفاقها بالأساطير والخيال .

فقـد اشترك الجهاز العباسى العالمى بكل قواه ، وبكل عملائه ، من علماء وفقهاء وشعـــراء وكتاب ، فى هذا التزييف الذى لم يعرف له التاريخ مثيلا .

وجاء رجال التاريخ الإسلامى ، وجلهم من الحنابلة المتزمتين فألقوا بكل ما فى صدورهم ، من موجدة ، ومن حقد على التصوف الإسلامى ، على رأس الحلاج وتاريخه ورسالته .

وعجزت كل هذه الخصومات ، وكل هـذه الأباطيل والأساطير ، عن أن تطفىء شعاع هـــذا الروح الكبير ، وظل شعاعه الروحى يومض فى أفق الحياة ومضات تترك آثارها ولمساتها فى القلوب والعقول ، وفى الضمير الإنسانى ، والوجدان البشرى .

والتاريخ كما يقول العلامة — سبنسر — : « لا يموت » فان حقائقه وإن توارت فى زحام الأغراض ، وصيحات الأقزام ، تستعصى أبداً على الفناء .

ومن هذه الحقائق المتناثرة ، التى أثقلت كواهلها أكداس هائلة من التزييف والتلفيق ، نحاول أن نقيم حياة ، وأن نعرض هـذه الحياة ، بكل ما أبدعت وابتكرت على النـاس ، وأن نجعلها على جبين الشمس واضحة سافرة .

والحلاج شخصية غنية خصبة ملهمة ، شخصية تفتح أبواباً للتفكير ، ومسرحاً للخيال ، ومجالا للعاطفة ، شخصية تعددت جوانبها ، واتسعت آفاقها ، واحتشدت فيها جميع الانفعالات النفسية والوجدانية ، والإلهامات الروحية والقلبية ، والرياضات العقلية والجسدية .

كما تمثلت فى وقائعهـــا كافة العناصر التى تصنع بطولات التاريخ ومعجزاته ، بكل ما فى البطولة من عزة وسموق وعظمة واستشهاد ونضال وفداء وقوة .

وفى إطار هـذه الشخصية الشامخة ، نعاصر حقبة حاسمة فى التاريخ

الإسلامى ، الفكرى والحضارى ، فنرى الصراع المشبوب الأوار ، بين المعتزلة والحنابلة ، والشيعة والقرامطة ، والفقهاء والصوفية .

ونشهد حياة القصور العالية ، وما فيها من إسراف وترف ، وشهوات وغوايات ومؤامرات ، وكيف تتشابك العواطف بالأحداث ، لتجعل من خلفاء العباسيين الذين دانت لهم الأرض ، ألعوبة فى أيدى العبيد والنساء ، وأشباه العبيد والنساء

ونرى العالم الإسلامى ، وهو يتمزق بعد وحدة ، وتنتابه انتفاضات فكرية وثورية ، واقتصادية وثقافية .

ونطالع الحياة الروحية ، فى أزهى عصورها ، وأنبل صورها ، عصر النجوم المتلألئة ، عصر المدارس الصوفية الكبرى ، التى دفعت بمناهجها فى المعرفة والسلوك ، إلى ساحات الفكر الإسلامى ، وانطلقت فى جو عاصفة الجدل والحوار ، والخصومات المذهبية الجامحة ، أطلقت كلمات جذابة حلوة ، لها إغراء ورنين وبريق ، كلمات الحب ، والوجد ، والشوق ، والأنس فى الحضرة الربانية ، والساحة القدسية .

وما تلهم هذه الكلمات النورانية ، من أدب النفس ، وسمو الحس ، وطهارة القلب ، ونبل الخلق ، وتصعيد الأعمال كافة إلى الله سبحانه ، وإفاضة المعنى الروحى على كل شىء فى الوجود ، وما يترقرق حول هذه المعانى ، من أشواق ورياضات ، وأذواق وإلهامات .

وفى قلب هذا الخضم ، بانفعالاته المتوترة الحية ، وبأفكاره المتدفقة المحلقة ، وبأحداثه الثائرة المضطربة ، وبترفه وشهواته الجامحة .

برزت شخصية الحلاج لتحدث فى الدنيا دويا ، وتحدث فى الجماهير سحراً ، وتلقى على كل شىء مسته حياة وحرارة وانفعالا .

كان الحلاج عبقرية من تلك العبقريات الاستهوائية ، التى يعرفها التاريخ فى لحظاته الحاسمة .

وبلغ من عظمة هـــذه الشخصية ، أنها غدت النبأ العظيم فى آفاق التصوف والمعرفة ، كما كانت النبأ العظيم فى آفاق الإصلاح والثورة .

كان الحلاج يملك قوة روحية عالية ، من تلك القوى التى يفيضها الله على من يشاء من عباده ، وكانت تلك القوى الروحية تمنحه فيما تمنح ، القدرة الموحية المؤثرة الصانعة فى عواطف الناس وقلوبهم وأحاسيسهم ، وتضفى عليه طاقة تلهم الآمال الكبار ، لـكل من يلوذ به ، أو يدنو منه ، بل لقد شهد أمناء أتقياء ، بأنه كان يؤثر بروحانيته العجيبة ، فى الجماد والنبات والحيوان .

ومن هنا توهم أعداؤه فيه السحر والشعوذة ، وتوهم أحبابه فيه القدرة الخارقة على صنع المعجزات ، حتى لقد نسبوا إليه ، إحياء الموتى ، وبعث من فى القبور ! !

ويحدثنا شيخ الصوفية الأكبر محي الدين بن عربي . فى الباب الثالث والستين وأربعمائة . من كتابه ـــ الفتوحات المكية ـــ « إن الحلاج كان يدخل بيتا عنـده يسميه بيت العظمة ، فكان إذا دخله ملأه كله بذاته بأعين الناظرين ، حتى أن بعض النـاس ممن لا يعرف تطورات أحوال هذا المقام ، نسبه إلى علم السيميا ، لجهله بأحوال الفقراء فى تطوراتهم .

ولـما دخلوا عليه ليأخذوه للصلب ، كان فى ذلك البيت فـما قدر أحد أن يخرجه من ذلك البيت ، لأن الباب يضيق عنـه ، فجاء الجنيد وقال له : سلم لله تعالى ، وأخرج لـما اقتضاه وقدره ، فرجع إلى حالته المعهودة . فخرج فصلبوه » .

ويقول صاحب الفهرست[1] : « حرك الحلاج يده يوماً فانتثر على قوم مسك . وحرك مرة أخرى يده ، فنثر دراهم » .

ويقول العلامة البغدادى[2] : « ووقع له عند الناس قبول عظيم ، حتى حسده جميع من فى وقته » .

ويهتف خلصاؤه وتلاميذه يوم صلبه : « لم يمت الحلاج بل ارتفع إلى السماء . . وسيعود ! ! ؟ » .

لقد عجز الموت فى أبشع صوره ، وأقسى ألوانه ، أن ينتزع الهالة الكبرى ، التى تحيط بتلك الشخصية الضخمة الرائعة .

ويمشى سحر الحلاج وجلاله ، وتأثيره القوى الغلاب ، إلى رجال الاستشراق ، فيتحدثون عنه كبطل أسطورى ، من رجال الغنوص الشرقى[3] وكشخصية مكررة من شخصية المسيح عليه السلام جاء ليعيد مأساة جبل الجلجلة[4] وليكرر فكرة الفداء . فداء البشرية من الخطيئة الأولى .

ولكن هل حشدت الخلافة العباسية ، كل قواها لقتال الحلاج ، وأعدت كل ما تملك من وسائل الجبروت الوحشى ، والعنف البربرى فى عذابه ومحاكمته وصلبه ، من أجل مواجيده وألحانه فى الحب الإلهى ،

---

(١) ص ٢٦٩

(٢) ماضى الإسلام وحاضره ص ١٧٢

(٣) الغنوص : كلمة يونانية الأصل ، ومعناها : العلم أو المعرفة ، ثم أصبحت اصطلاحا على المذاهب التى تتوصل إلى المعرفة بطريق الكشف ، ثم اتسع مدلولها حتى اصبحت علما على المذاهب الشرقية ، الفارسية والهندية التى تضم إلى جانب منهجها فى المعرفة الأسرار والسحر .

(٤) الجبل الذى قالوا عنه : إن عيسى عليه السلام صلب عليه .

ومن أجل إلهاماته وفتوحاته ، فى مقامات الفناء الصوفى ، وعجائبه وقدرته على الإيحاء والإلهام ، وصنع الكرامات والمعجزات ! ؟

يقول المؤرخ الكبير صاحب الفهرست : « لقد كان الحلاج جسوراً على السلاطين ، يروم انقلاب الدول[1] » .

ويروى لنا إمام الحرمين — الجوينى — : « إن الحلاج كان يريد قلب الدولة ، والتعرض لإفساد المملكة » .

ويقول المستشرق نيكلسون فى كتابه — الصوفية فى الإسلام : « إن قتل الحلاج أملته دوافع سياسية لا تعرف الرحمة » .

ويقول العلامة — جولد زيهر — فى كتابه — محاضرات عن الإسلام : « لقد أثرت صيحة الحلاج الصوفية : معرفة الله : تأثيرا عميق الأثر ، فى الحياة العلمية الإسلامية » .

ثم يقول : « لقد أخـــذ الحلاج يتدخل فى حياة المجتمع الإسلامى تدخلا شديد الوطأة » .

ويقول العلامة المستشرق — ماسنيون[2] — : « كان الحلاج يحرك الجماهير ، وينادى بالإصلاح ، ويبشر بفكرة الحكومة المثالية التى تقيم الشريعة على نغمات المحبة والعبادة الخالصة لله » .

وإذن فصيحة الحلاج الصوفية الإصلاحية ، ودعوته إلى إقامة حكومة ربانية مثالية ، هى سر المأساة الكبرى ، أو إحدى أسرار تلك المأساة الكبرى .

---

(١) ص ٢٧٠

(٢) شخصيات قلقة .

ومأساة الحلاج ، كونتها عناصر تاريخية ونفسية وخلقية ، وفي طليعة تلك العناصر ، الرهبة التي استشعرها العباسيون من القوى الصوفية النامية ، التي أخذت تهيمن على العراق في القرن الثالث الهجري .

يقول العلامة ابن الأثير بعد أن شرح الموقف في الإمبراطورية العباسية والصراع الناشب بين الفرق والطوائف[1] : « ولكن فرقة واحدة بقيت بعيدة عن التعصب ، ألا وهي فرقة الصوفية ، فقد كانوا يمتازون بسلامة الفكر والعفة والأخلاق الحميدة كما كان أفق تفكيرهم أوسع بكثير من غيرهم فأكسبهم هذا حب كثير من الناس ، وأخذ نفوذهم يزداد ويقوى ، وهرع كثير من الناس إلى حظيرتهم بعد أن رأوا جور الزمان وقسوته ، وكثرت مجالس الصوفية وأقبل الناس عليها » .

تلك هي مكانة التصوف في العراق خلال تلك الحقبة من التاريخ ، لقد غدا اتباعه ، القوة الحية النامية في المحيط الممزق المضطرب .

وكان في بغداد ، عمالقة من الأئمة الروحانيين ، وزعماء من القادة الصوفيين . . . كان هناك أبو القاسم الجنيد ، والشبلي ، وسهل التستري ، وعمر المكي ، والسري السقطي وغيرهم من الأقطاب الكبار .

ولكن الحلاج ، كان أقواهم شخصية ، وأوسعهم نفوذا ، وألصقهم بالجماهير ، وأكثرهم قدرة على حمل راية الكفاح والنضال .

كان الحلاج يحمل روح ثائر ، وقلب قطب ، وعقل زعيم ، وروح محب عابد ، وكان يؤمن بالتصوف القرآني الإيجابي ، الذي يسهم في الأحداث . ويوجهها ، ويترك طابعه عليها .

---

(١) نظام الكنجوي ص ٦٥ .

وكان يبشر عن عقيدة ثابتة لا تتزلزل ، بحكومة الأقطاب الروحانيين ، كما كان يؤمن بأثر الصلاة والعبادة ومحبة الله ، فى إصلاح المجتمع ، والارتفاع بالجماهير إلى أفق أنبل وأعلى .

ومن هنا كان الحلاج فى نظر الخلافة العباسية ، هو الزعيم الصوفى الذى يهدد سلطانها ونفوذها ، ويؤلب الجماهير ضد مظاهر الترف والإسراف والشهوات العالية الصوت فى محافلها وقصورها .

يقول الاصطخرى : « إن كثيراً من علية القوم فى بغداد رأوا فى الحلاج . أنه هو الرئيس القطب المنقذ .

وفى طليعة من آمن به من الوزراء : على بن عيسى ، وحمد القنائى ، والدولابى ، ونعمان ، ومحمد بن عبد الحميد .

ومن الأمراء : الحسين بن حمدان ، ونصر القشورى ، ومن ولاة الأمصار أبو بكر الماذرائى ، ونجح الطولونى ، ومن دهاقين فارس وأشراف الهاشميين ، أبو بكر الربعى ، وأحمد بن عباس الزينبى .

ثم يقول : وكانت له معهم مراسلات مما هيأ لهم الهداية ، وهيأ له الخوض فى السياسة ، وواجبات الوزراء » .

وتلك الصورة التى رسمها لنا الاصطخرى ، تدل دلالة كبرى على مدى الأثر الكبير ، والنفوذ الواسع ، الذى ظفر به الحلاج ، فى الدوائر العليا للخلافة العباسية .

يقول — ماسنيون — : « لقد طالب الحلاج بإصلاح الإدارة الحكومية فى جرأة غير مسبوقة , ونادى بإقامة حكومة إسلامية حقا ، ووزارة كما يقول : تحكم بالحق والعدل بين الناس ، وهاجم عمال الخراج ، وطالب

كايقول : بخلافة تشعر بمسوليتها أمام الله جل جلاله ، مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم ، من صلاة وحج وصيام » .

تلك بعض الومضات التي تومىء إلى بعض جوانب الرسالة التي نهض بها الحلاج ، والتي سنعرض لها بالتفصيل والبيان .

ولن يضير الحلاج ، أن النجاح لم يكتب لرسالته ، وأنه قدم حياته فداء لتلك الرسالة ، فقد يكون الاستشهاد فى سبيل الفكرة والعقيدة ، أسمى ألوان النجاح ، وأعلى ضروب النصر .

أو كما يقول ابن أبو الخير فى ملحمته الحلاجية : « إن الموت على مصلب الحلاج ، ميزة الأبطال » .

ويقول حافظ الشيرازى ، شاعر التصوف الإسلامى ، فى إحدى قصائده : « ان تصلبنى الليلة ، فإن دمى يخط على الأرض — أنا الحق . مثل منصور الحلاج » .

ولما أراد جلال الدين الرومى ، عبقرى الشعر الفارسى الصوفى ، أن يصعد بفريد الدين العطار ، فى معارج الحب الإلهى . وفى مجالات البطولة الخالدة قال : إن روح الحلاج تجلت فى العطار » .

ثم عقب بقوله : « لقد بلغ الحلاج قمة الكمال والبطولة ، كالنسر فى طرفة عين » .

لقد كانت تضحية الحلاج هى سر خلوده ، فقد صعد الحلاج بتلك البطولة الفدائية إلى قمة الكمال كالنسر الجبار الجناح ، وغدا فى قلوب المتصوفة وعقولهم ، محجة ومنارة ترشد إلى المثل الأعلى فى إشراقاته وإلهاماته .

وأصبح الحلاج بهذا الاستشهاد الأسطورى الملهم الأكبر لمواجيد الشعراء وألحانهم وأغانيهم فى الأفق الصوفى .

فهو فى الشعر التركى ، الولى الأكبر ، وهو لدى الهنود : شهيد الحق . وهو الملهم الأول لعباقرة الشعراء الفارسيين العالميين ، حافظ الشيرازى ، وجلال الدين الرومى ، وفريد الدين العطار .

وامتد إلهامه عبر القرون ، فنشأت الفرق الصوفية الكبرى ، على وقع نغماته ودعواته ، وهدى تفكيره وآدابه ، حتى أن البكتاشية التى هيمنت على تركيا وألبانيا ، قروناً عديدة ، ترجع فى أصولها إلى الحلاجية .

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام[1] ــ فكان عند الصوفية ولا سيما صوفية العجم والهند ، كالمسيح عند النصارى ، واتخذوا كلماته شعاراً ودثارا ، وأشادوا بذكره ، وجعلوه مثلا للصوفى الفانى فى الله » .

ويقول المستشرق ماسنيون[2] « إن أقوال الحلاج ترسم له حياة بعد موته ، ذات طابع حضارى عميق ، وأكثر صدقاً من الناحية الاجتماعية ، من الشهرة الأدبية التى نالتها نماذج ، مثل الإسكندر ، أو قيصر لدينا فى الغرب » .

ثم يقول : « كان الحلاج ، نموذج الولى الذى يجده الشعب التركى المجاهد الذى أقبل على الإسلام فى أعقاب مصرع الحلاج » .

ويتحدث فريد الدين العطار عن مدن العشق السبع ثم يقول : « الحلاج ذلك الشهيد العالمى . الذى قدم للدنيا صورة الولاية الكبرى ، وقد بلغت أوجها فى تضحية حربية ، مليئة بالرجولة . مليئة بالإلهام » .

ويستعرض ماسنيون الامتــــداد الروحى للحلاج . فيقول : إن دم الحلاج يعتبر بذرة روحية تضمن استمرار الإلهام لمحبيه . ثم يقول :

---

(١) كتاب فريد الدين العطار والتصوف . ص ٣٠

(٢) شخصيات قلقة ص ٨٥

« والحلاج يدعى فى الدعوات الشخصية ، خصوصاً فى بلاد الترك لوقف بكاء الأطفال الصغار ، ولا يزال قبره التذكارى الخالى من رفاته الذى أقيم له فى بغداد . كعبة الزائرين .

والمزمار الرئيسى فى الحفلات الموسيقية الروحية عنـــد المولوية يدعى باسمه — ناى منصور » .

لقد كان الحلاج دائماً يقول فى دعواته : « يا معين الفناء علىّ أعنى على الفناء » .

وسواء كان يقصد فناء الحب . أو فناء الامتداد الروحى . فقد استجاب الله الدعاء ، فاستعصى الحلاج على الفناء . وحلق خالداً فى آفاق الشهداء . وستبقى قطرات دمه بذرة روحيـــة ، تضيف فى كل يوم إلى التصوف الإسلامى قوة ونماء .

وذلك خلود من ظفر بجوهرة الحب الإلهى . واستشهد فى سبيلها .

عصـــره وحيـــاته

الفرس والتصوف :

يقول عبقرى الفكر الإسلامى ، العلامة الفيلسوف البيرونى : « العلم شجرة أصلها بمكة ، وثمرها بفارس » وهى كلمة من الكلمات التى تلقى بالأضواء على التاريخ .

لقد كان فجر البعث القرآنى بأم القرى ، وعلى قيثارة الوحى ، تفتحت مشاعر العرب للهدى ، فحملوا كلمات الله إلى آفاق الدنيا ، يخرجون الناس من الظلمات إلى النور ، ويهدون الإنسانية صراطاً مستقيما .

وتسلم الفرس من العرب تراث الوحى غضاً مشرقا ، بكل ما فيه من نور وقوة ، وإلهام وحياة .

وتفجرت فارس عيوناً ، وتفتحت آفاقاً ، وربت فيها الثقافة الإسلامية وتلألأت ، وأينع ثمرها ، وأتت أكلها ، وانبعثت قواها ، مبـــدعة وصانعة ، لأكبر نهضة ثقافية عرفها التاريخ ، حتى رأينا عجبا ، وشهدنا إعجازا ، ففى كل قرية ، عباقرة كبار ، وفى كل أفق ، نجوم وأقمار ، وفى كل مكان أئمة عمالقة ، يبدعون ويبتكرون وينشئون ، ومن هنا جاء الخبر المأثور : « لو كان العلم بالثريا ، لناله رجل من فارس » .

وأبناء فارس كما يقول ابن النديم : « مشبوبو القلب والعاطفة والخيال ،

فيهم استجابة فطرية ، للمعارف الروحية ، والأذواق الوجدانية ، ومن ثم وجد التصوف الإسلامى ، فى أرض فارس أفقه ومجالاته ، والينابيع التى تمده بالزكاء والنماء ، والقلوب التى تتفتح له وتقتات به . . . وكما يقول المستشرق — ماسنيون[1] : « أصبحت فارس الملهمة ، المركز الأكبر للتصوف الإسلامى ، الذى يوافق فطرتها وملكاتها » .

ويحدثنا الدكتور عبد الوهاب عزام عن أثر شعراء فارس فى تشكيل الحياة الروحية وتعميقها فى الإسلام فيقول[2] : « وبلغ شعراء فارس فى هذه السبيل غاية لم يدركها شعراء أمة أخرى ، فأخرجوا المعانى الظاهرة والخفية ، والجليلة والدقيقة ، فى صور شتى معجبة مطربة ، وقد فتح عليهم فى هذا فتحاً عظيما ، فكان شعرهم فيضاً تضيق به الأبيات والقوافى والصحف والكتب ، حتى ليقف القارىء حائراً . . كيف تجلت لهم هذه المعانى ، وكيف استطاعوا أن يشققوا المعنى الواحد إلى معانى شتى ، ثم يخرجوا كل واحد منها فى صور شتى عجيبة ، كأنها أزهار المرج ونباته تزدحم فى العين ألوانها وأشكالها ، وماؤها واحد ، وترابها واحد :

ثم يقول : « . . . لقد تحول الشعر الفارسى كله ، إلى شعر صوفى ، فلا يخلو شاعر فارسى من نزعة صوفيـة تظهر فى شعره ، لشد ما سيطر شعراء الصوفية على الشعر الفارسى » .

وبقيام الدولة العباسيـة ، انتقل النفوذ السياسى ، والثقل المادى ، وترف الحضارة ونعيمها وجلالها إلى فارس ، فغدت محور الحياة الإسلامية السياسية والعلمية ، بل غدت فارس أفقاً عالمياً تتشابك فيه وتتصارع

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام .
(٢) التصوف وفريد الدين العطار ص ٤٢

التيارات الفكرية والقلبية ، وتلتقى فيه وجها لوجه ثقافات الأمم شرقية وغربية .

ويصف لنا المؤرخ الكبير ياقوت : المكتبات العلمية العامة بمدينة « مرو » إحدى مدن فارس التى لا تبلغ مرتبة العواصم فيقول[1] : « يوجد بها عشرة خزائن للكتب لم أر فى الدنيا مثلها ، منها خزانتان فى الجامع . إحداهما يقال لها « العزيزية » وفيها اثنى عشر ألف مجلد . للناس كافة ، وكانت سهلة التناول لمن يريد . . ولا يفارق منزلى ماتتا مجلد ، وأكثرها بدون رهن . . ثم يقول : وأنسانى حبها كل بلد ، وألهانى عن الصحب والولد ، وأكثر فوائد كتبي من تلك الخزائن » .

ويصف الإمام « الجوينى » أرض فارس فيقول : « مطلع السعادة والمبرات ، وموضع المراد والخيرات ، ومنبع العلماء ، ومجتمع الفضلاء ، ومرتع العظماء » .

أما ابن خلكان ، فيحدثنا فى كتابه « وفيات الأعيان » عن فارس حديثا يحلق على أجنحة حبها وتقديرها ، حتى يصفها بأنها الجنة التى وعد بها المتقون ، فيها متاع الأعين والعقول ، أو كما يقول : إنها أنموذج الجنة يلامين فيها ما تشتهى الانفس ، وتلذ الأعين . وتزكو به القلوب والعقول » .

وفى جو تلك الحضارة العلمية الشامخة ، وفى عنفوان هذا الترف الثقافى والحضارى ، كان قلب فارس ، يخفق بالتصوف سلوكا ومعرفة ، وكان أبناء فارس ينظرون إلى التصوف نظرة الإجلال والإكبار والتقديس ،

---

(١) معجم البلدان ص ٣٥

ويجدون فى مناهجه القلبية والروحية ، صدى لما يضطرب فى أعماقهم من أشواق وأذواق ، وما يتلألأ فى معارفهم من إشراقات وإلهامات . بل يرون فى التصوف وجه القرآن وعلومه وأنواره ، وأسرار هذه العلوم والأنوار ، ويرون فيه فوق هذا وذاك ، مجالا ومسرحا للقلوب المتعلقة بعرش ربها ، القلوب التى تقتات بذكره وحبه ؛ وتتلقى من إلهامه وفيضه .

فجر التصوف وضحاه :

ومع مكانة التصوف الكبرى فى الفكر الإسلامى ، وما قدمه للحياة الإسلامية فى شتى مراحلها ، من مناهج فى المعرفة والأخلاق ، والسلوك الاجتماعى ، وما أفاض على الثقافة الإسلامية من معان مشرقة عالية ، فى كل ما يتصل بالروح والقلب ، وصلة الإنسان بخالقه ، وسيره إلى محبته ورضوانه ، وما أبدع فى هـــذا السير من أحوال ومقامات وأذواق ومشاهدات وإلهامات ، سهمت فى تعميق المعانى القرآنية واتساعها وشمولها ، كما سهمت فى تكوين تلك الحياة الروحية التى أصبحت من أكبر العناوين المتلألئة فى جبين الدعوة الإسلامية ، وفى أفق رسالتها العالمية .

مع هذه المكانة الضخمة . لا تزال الأقلام قلقة مضطربة ، وهى تتناول نشأة التصوف وتدرجه وأثره فى التاريخ الإسلامى .

وسر هذا الاضطراب ، إن كتب الطبقات الصوفية ، لم تضع منهجاً علميا لتاريخ الحياة الروحية فى الإسلام ، فقد اعتبرت أئمة الصحابة جميعا من رجال الطبقات الصوفية ، ومن ثم ، اعتبرت بداية الإسلام ، هى بداية التصوف ؟

وجاء رجال التاريخ الإسلامى ، وجلهم من الحنابلة الذين خاصموا منهج التصوف فى المعرفة والسلوك ، فلم تتجه أقلامهم إلى تدوين تلك الحياة الخصبة المثمرة ، بل ألقوا عليها ستارا ، ولم يرجو لها وقارا !!

ثم جاء رجال الاستشراق فى عصرنا ، فبذلوا جهودا ضخمة فى دراسة التصوف الإسلامى ، ورجاله وتراثه .

ولكن هذه الجهود الضخمة ، شابها وشوه من جلالها ، عقدة نفسية ، تحملها أقلامهم ، وتستقر فى أعماق قلوبهم ، وتدفعهم دفعاً إلى تصوير التصوف الإسلامى ، فى أثواب مستعارة من الملل والنحل الروحية ، شرقية وغربية ، وتدفعهم دفعاً إلى تحميل الكلمات والآراء أكبر مما تطيق ، وأوسع مما تحتمل ، ليضفوا على التصوف الإسلامى ، صوراً غنوصية غامضة ، من صور الغنوص الشرقى ، الذى يستهوى رجال الاستشراق ، وشعوب رجال الاستشراق .

وتابعهم وجرى فى ساحتهم فريق كبير من كتابنا ، بحكم التلمذة لهم حيناً ، وبحكم التشدق بآراء مفكرين أوربيين أحياناً ، وبحكم جهلهم بالإسلام والتصوف أولا وقبل كل شىء .

ولسنا هنا بصدد التأريخ لهذه الحياة ، وإنما نحاول أن نرسم خطوطاً لها فى نموها وتطورها ، تعيننا على تفهم منهج الحلاج الروحى ، وصلة هذا المنهج الحلاجى ، بالإسلام والتصوف ، أو مجانبته لهما .

لقد وجد الروح الصوفى مع الإسلام منذ يومه الأول ، وليس معنى هـــذا ، أن الأذواق والمواجيد ، القلبية والروحية ، والمناهج الصوفية سلوكا ومعرفة ، كانت واضحة جلية ، فى أيام الإسلام الأولى ، وفى حياة أئمة الصحابة رضوان الله عليهم ، ففى هذا الزعم إسراف ومجانبة للحقائق .

ولكننا لو تأملنا فى آيات القرآن المحكمة ، وفى حياة الرسول الطاهرة ، وسير صحابته المشرقة ، نجـد البذور الأولى ، للسلوك الصوفى ، وللمعرفة الروحية ، مبينة متلألئة .

وليس التصوف بدعا فى هذا فكل منهج من مناهج المعرفة فى الإسلام انبثق كما انبثق التصوف من روح القرآن ، وجوهر رسالته ، وبدأ كما بدأ

التصوف مع الإسلام ، ثم نما وتطور ومشى مع خطو الحياة ، وسنة الله .

فإننا مثلا نستطيع أن نقول مع الفقهاء ، إن الفقه نشأ مع الإسلام ، وليس معنى هذا القول أن التفريعات الفقهية ، والاستنباطات والمصطلحات الفنية ، كانت فى صدر الإسلام . . وفى الكتاب والسنة ؟ وإنما كانت هناك البذور الأولى ، والمادة الأولى ، التى نمت وتطورت ومشت مع الحياة .

كان التصوف موجودا فى صدر الإسلام بروحه وهديه ، وآدابه وخلقه ، وترفعه وزهده ، وعباداته وطاعاته ، وذكره ومناجاته ، كان موجودا بجوهره لا بمصطلحاته ، وقائما بكلياته لا بجزئياته .

كان التصوف فى صدر الإسلام . هو هذا الروح الدينى المهيمن المسيطر على حياة المسلمين كافة ، الموجه لحركاتهم وسكناتهم ، الصاعد بأعمالهم ونواياهم ، إلى خالقهم ومولاهم .

كان هذه الرقابة الحية اليقظة التى أقامها كل مسلم فى أعماقه ، ليراقب ما توسوس به نفسه ، وما يصطرع فى قلبه ، وما يتواثب فى نفسه ، وما يخفى صدره ، وما تطرف به عينه .

كان هذا الترفع الشامخ عن شهوات الدنيا وزخرفها ، والإعراض عن بريقها وفتنتها ، والزهد فى ترفها ومظاهرها ، والتسامى بكل ما فيها إلى وجه الله ، حتى يظفر بحبه ورضاه ، وقربه وهداه ، لأن الدنيا لا تزن عنده جناح بعوضة ، ولأن الآخرة خير وأبقى .

ثم مشت الحياة بالمسلمين ، وفتحت عليهم الدنيا ، وابتعدت مسامعهم عن نغمات الوحى ، وتفرقت قلوبهم عن الميثاق والعهد ، وانحلت العزائم ،

وفترت الهمم، وتسارع الناس إلى المال والجاه، ولهو الحياة، ونشأت الفتن، واختصموا على الملك، وتصارعوا وتباغضوا، وتشعبت بهم السبل.

ونشأت تبعا لذلك، حركات مضادة، ورسالات مجاهدة، صمدت فى وجه العاصفة.. ويحدثنا تاريخ النصف الثانى من القرن الأول للهجرة، عن وعاظ ومرشدين، وقفوا على أسوار القرآن، ومعالم السنة، ينذرون الناس ويدعونهم إلى ربهم ودينهم، تميزهم شجاعة نفسية عالية، أعانتهم على مواجهة الجبروت والاستبداد الذى بدأت طلائعه فى أفق الحياة الإسلامية.

وبجوارهم رأينا طائفة من الزهاد، الذين وقفوا فى وجه فتنة الترف والإسراف، وأخذوا يديرون لحونهم وأحاديثهم، حول فضائل النفس، وآداب الحس، وتزكية الجوارح، والزهد فى الدنيا، وهوان أمرها، وزوال نعيمها، وضلال شهواتها.

ثم رأينا العباد المتبتلين، الذين انقطعوا إلى طاعة الله، وعبادته وذكره، وأحالوا الكون إلى محاريب للصلاة والمناجاة، ومنابر للتحدث عن نعم الله، وعن عظمته وجلاله، والأنوار التى يفيضها على الساجدين المتطهرين.

ومن هؤلاء وهؤلاء، تكون الرعيل الأول، من الصفوة الربانيين، الذين عرفوا فى التاريخ باسم الصوفية، أو كما يقول ابن خلدون: «اختص المقبلون بأنفسهم على الله باسم الصوفية».

ثم ابتدأت تتكون لهذه الطائفة ثقافة إيمانية، لها لونها وطابعها وخصائصها الفنية.

ثقافة تدور حول ذكر الله وإلهاماته ، ومجاهدة النفس ، وما ينبثق من هذه المجاهدة ، من آداب السلوك ، ومقامات السير ، ويتوج كل هذا الصلة بالله سبحانه ، وما يترقرق حول هذه الصلة ، من أذواق ولحون ، ومواجيد وأشواق ، ثم ثمرة هذا كله ، وهو المعرفة الباطنية ، وما تفيض هذه المعرفة من علوم وأنوار .

ومن ثم بدأت الحياة الروحية ، تنفصل عن الحياة العامة ، وتستقل بمناهجها ومعارفها ، وابتدأ الصوفية يصطنعون كلمات تحدد أذواقهم ، وتعبر عن شعورهم . . وأخذ أفق هذه الكلمات يتسع لمعان متعددة ، وكانت كل كلمة تضاف إلى التصوف ، تفتح أفقاً جديداً ، وتكون نبعاً متدفقا ، وتتناولها السنة الصوفية ، فتفتقها وتبتدع لها صوراً وألواناً وأذواقا .

ثم أخذوا يكونون لهم فلسفة فى الأخلاق ، وفى السلوك ، وفى العبادة وأخذوا يجردون الأسباب من قوتها ، ويرجعون كل شىء إلى الله سبحانه ، فأكسبهم ذلك عزة خلقية ، وسعادة روحية ، قوامها الرضا بقضاء الله وقدره ، واليقين بأن لا سلطان لقوة من قوى الأرض على مصائرهم وحياتهم ؛ أو كما يقول إبراهيم بن أدهم : « نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيف » .

كما أفاضت عليهم الثقة بالله والتوكل عليه ، شجاعة نفسية ، وقوة إيمانية ، لا تسامقها قوة ولا شجاعة ، يقول إسحاق بن إبراهيم السرخسى : « سمعت ذا النون المصرى ، وفى يده الغل ، وفى رجليه القيد ، وهو يساق إلى المطبق ، والناس فى بغداد يبكون حوله ، وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى ، ومن عطاياه ، وكل فعله عذب حسن طيب » .

تلك الشجاعة الصوفية الشامخـــة التى ستبلغ ذروتها فى البطل الشهيد الحلاج ، حينما صمد للمأساة صموداً لا يطاوله فى التاريخ صمود .

هذه خلاصة سريعة للمعارف الصوفية ، فى القرن الثـانى للهجرة ، ثم جاء القرن الثالث ، فبدأ معـــه العصر الذهبي للتصوف ، أو عصر النضوج العلمى للحياة الروحية .

تطور المعارف الصوفية
فى القرن الثالث الهجرى

وفى مطلع هـذا العصر ، أخذت معانى الحب الإلهى ، الذى سمعنا جرسه لأول مرة فى ألحان رابعة العدوية ومواجيدها ، أخذت معانى هذا الحب تتسع ، وتتلون بهـا المقامات والأحوال ، وأخذت كلمات الأنس والبسط ، والرجاء والخوف ، واليقين والمشاهدة ، تشيع وتؤتى ثمـارها ، وتدرجت على أجنحة الحب ومعارجه حتى وصلت بالصوفية إلى مقام الفناء ، وهو أخطر مقامات التصوف وأبعدها أثراً فى تاريخه .

والفناء هو غاية الصوفية ففيه يشربون رحيق الحب الأعلى ، وينعمون فيـه بمتع ولذائذ روحية تنسيهم دنياهم وأخراهم ووجودهم ، وكل شىء سوى المحبوب .

والحب أساس الأحوال الصوفية ، وقد اعتبر كما يقول « السهروردى » أساسا الأحوال ، كالتوبة بالنسبة إلى المقامات ، فمن صحت توبته على الكمال ، تحقق بسائر المقامات ، من الزهد والرضا والتوكل ، ومن صحت محبته ، تحقق بسائر الأحوال ، من الفناء والبقاء والصحو والمحو[1] .

ومن الحب تنشأ المعرفة والمشاهدة ، ولذة المعرفة والمشاهدة ، وفى الحب يتمتع المحب بالجمـال المقدس ، ويا له من جلال وجمال ؛ ونشوة الحب الكبرى ، تسمى سكرا ، والسكر علامة الصدق فى الحب ، وهو نشوة روحية لا يمكن تصورها إلا بالتجربة ، كما يقول الإمام الغزالى ، ولذلك قالوا من ذاق عرف[2] .

---

(١) عوارف المعارف ص ٣٥٠

(٢) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٦٩

وهذا السكر الروحى ، حدقة يرى بها الصوفى ، حقيقة الكون ، وسر الخلق ، يقول معروف الكرخى : «إذا انفتحت عين بصيرة العارف نامت عين بصره . فلا يرى إلا الله» .

ونهاية السكر هو الفناء ، وفيه يغنى المحب عن الموجودات ، ويتجه بكليته لمطالعة وجه المحبوب .

والفانى كما يقول الصوفية : لا يحس بما حوله ، ولا يحس بنفسه ، فقد فنى عما سوى الله ، ومن هنا جاء كلام الصوفية الذى لا يفهمه ولا يتذوقه سواهم ، حينما يقولون ، فى نشوة الفناء ، ووقدة الحب : «ليس فى الوجود إلا الله» .

إنها تجربة عليا ، تجربة ذاتية فى عالم الروح والسر ، تجربة كان أقوى وأجرأ من تحدث عنها «الحلاج» حينما بلغ الذروة العليا لمقام الفناء ، أو مقام الاتحاد ، وحينما ابتدع الحلاج من هذا المقام معارف صوفية ، تتحدث عن وحدة الأديان ، والنور المحمدى ، ووحدة المحب والمحبوب .

ويأتى بعد مقام الفناء ، مقام البقاء ، ويأتى بعد الوحدة ، مقام الجمع ، وبعد الجمع ، مقام التفرقة .

ومقام الجمع ، هو رؤية الحق بلا خلق ، وهى حالة وجدانية ، أو حالة دهشة وغيبة ، مع فقدان الإحساس بالأشياء وبالنفس .

والمحب هنا يعزل نفسه عن صفاتها ، بأن ينظر ، وكأنه بمثابة النظر لا الناظر ، ويسمع ويعى وكأنه بمثابة السمع والوعى ، لا السامع والواعى ، ويتكلم وكأنه بمثابة الكلام لا المتكلم .

إنه مقام إشارة ، إلى حق بلا خلق . . . وحالة الجمع هذه هى الحالة

التى قال فيها الصوفية ، الكلمات الجريئة التى عرفت ، باسم « الشطح » والتى هوجم التصوف والصوفية من أجلها ، وتضرب الأمثال بكلمة أبى يزيد البسطامى « سبحانى » وبقول الحلاج : « أنا الحق » .

وقد قيـــل لشيخ الطائفة الجنيد : « إن أبا يزيد يسرف فى الكلام فقال : وما بلغكم من إسرافه فى كلامه ؟ قالوا : سمعناه يقول : سبحانى . . سبحانى . . أنا ربى الأعلى . . ؟

فقال الجنيد : إن الرجل مستهلك فى شهود الإجلال ، فنطق بما استهلكه لذهوله عن رؤيته إياه ، فلم يشهد إلا الحق تعالى ، فنعته فنطق به[1] .

ويعتبر كبار الصوفية ، مرحلة الجمع هذه ، أدنى مما يجب أن يكون عليه الكمل من المحبين الذين يجب أن يتحققوا بما يسمونه : جمع الجمع : أو « صحو الجمع » أو « الفرق الثانى ؟ ؟ » .

وهى مرحلة تعقب مرحلة الجمع السابقة ، ويجمع الصوفى فيها بين الجمع والفرق معا ، لأنه لا بد للعبد منهما ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له .

وحالة جمع الجمع هذه ، حالة وعى وصحو وإدراك ، مع بقاء المعرفة الصوفية ، التى كانت فى حالة السكر فلا يزول عن صاحب المقام إدراك الوحدة ، إذا نظر إلى الكثرة ، أو إدراك الكثرة إذا نظر إلى الوحدة .

وهـذه حالة فيها جمع من وجه ، وتفرقة من وجه ، فالجمع باعتبار الشعور بالوحدة ، والفرق لإدراك الخلق ، وصور الكون كما هى .

---

(١) شطحات الصوفية ص ٦٨

ومن المتحققين بهذا المقام أبو القاسم الجنيد . ويقول فى هذا المعنى .

وتحققتـــك فى السرم فنـــاجاك لسانى
فاجتمعنا لمعـــان وافترقنـــا لمعان
إن يكن غيبك التعـ ظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك الوجد م من الأحشاء دانى

فالجنيد يجمع لمعان ، ويفرق لمعان ، وهـذا هو جمع الجمع ، وحال العارفين الكمل ، المحلقين على أجنحة الوجد .

* * *

ومقامات التصوف ومعارفه ومناهجه ، أفق يتلألأ جمالا وكمالا ، أفق صاغه الإلهام ، وفتق جوانبة الإيمان ، وشيد سماواته الحب الإلهى ، وما يفيض هذا الحب من مشاهدة يقينة ؛ وعلوم فيضية ، ومنح ربانية .

أفق مترامى الأبعاد ، تعجز العقول المادية الأرضية عن ارتياده ، واكتشاف أسراره ، والاهتداء إلى أنواره .

إنه أفق لأصحاب العقول والأذواق ، الذين صفت أرواحهم بالطاعة ، ورقت بالمجاهدة . وشفت بالمحبة ، وسمت بالاصطفاء ، حتى شهدت بالاجتباء مالا عين رأت ، وسمعت مالا أذن سمعت ، ونعمت بما لم تنعم به القلوب التى لم تبرح نطاق الماء والطين .

والقرن الثالث للهجرة ، يعتبره الصوفية أكبر وأخطر مرحلة فى تاريخ الحياة الروحية .

إنه العصر الذى بلغ فيه التصوف ضحاه ، واكتمل نموه ، وشـــيد صرحه ، وتدعمت مدارسه .

العصر الذى شهـــد الأعلام الأئمة الكبار ألذين يدين لهم التصوف بخطوطه العريضة المضيئة . . . العصر الذى عاش فيـه ، الحارث المحاسبي (ت سنة ٢٤٣ هـ) سيد المتحدثين عن دقائق ورقائق المحاسبة والمراقبة ، وذو النون المصرى (ت ٢٤٥ هـ) أكبر المتكلمين عن أسرار المقامات والأحوال ، وأبو اليزيد البسطامى (ت ٢٦٤ هـ) بتحليقاته وإلهاماته فى مقامى الحب والفناء ، وأبو سعيد الخراز (ت سنة ٢٧٧ هـ) أستاذ مدرســـة السلوك القلبي ، والخلق المثالى ، وسهل بن عبد الله التسترى (ت ٢٨٣ هـ) مربى العارفين القانتين ، وشيخ الطائفة وإمامها ، أبو القاسم الجنيد (ت سنة ٢٩٧) الحجة الذائق ، الواصل فى مقام التمكين .

وأخيراً الشهيد ، الحسين بن منصور الحلاج ، الذى بلغ به التصوف كما يقول « ماسنيون » أقصى درجاته الفنية ، وتحقق فيه الرمز الأعلى للصوفى المحب الفانى .

والحياة الصوفية فى القرن الثالث الهجرى ، بكل ما فيها من عظمة وإشراق ، وأسرار فى المقامات والأحوال ، وبكل ما اشتملت عليه ، من محبة وفناء ومشاهدة ، وفرق وجمع وفتح ، وجهاد فى سبيل الكمال ، واستشراف للمثل الأعلى .

كل هذا نشاهده مبيناً واضحاً مصوراً فى حياة الحلاج ، ونضاله ، وصراعة واستشهاده .

بل إن الحلاج ، ليعرض علينا ، آفاقاً قلبية ، ومعارجاً روحية ، وألواناً من الحب الإلهى وإلهاماته ، وما فيه من شوق ووجد ، وعذاب وحرقة ، وتقلب فى ملكوت المشاهد والأنوار ، لا نراها عند غيره .

لقد انبثق الحب الأعلى ، الحب الأعظم ، فى قلبه ووجدانه ، وحسه ، ودمه وكيانه ، فأذهله وحيره ، وأفناه عن سواه ، حتى لنراه ، فى أسواق بغداد بقامته الفارعة ، ولونه الأسمر الجميل ، وسمته المهيب ، ومنطقه الساحر ؛ وهو يهيم على وجهه ، وقد صرعه حبه ، وهو يصيح :

« يا أهل الإسـلام . أغيثونى ؟ فليس — أى الله — يتركنى لنفسى فاتهنى بها ؟ وليس يأخذنى من نفسى فأستريح منها ، وهذا دلال لا أطيقه[1] . . .

(١) محاضرات الأدباد ج ١ ص ٢٣٠

مولده :

فى بقعة من بقاع فارس الجميلة العريقة ، الغنية بخيرات أرضها ، وثمار عقول أبنائها ، وفى ضحى العصر الذهبي للتصوف ، فى مطلع عام ٢٤٤ هـ : ٨٥٨ م — ولد الحسين بن منصور الحلاج . فى بلدة «تور» فى الشمال الشرقى من مدينة البيضاء[1] .

وتقدم لنا دائرة المعارف الإسلامية ، روايتين متناقضتين عن نسبه ، فالرواية الأولى تصعد به إلى أبى أيوب الأنصارى الصحابى الجليل ، وبذلك تجعله عربيا خالصا . وتقول الرواية الثانية : إنه حفيد مجوسى من أبناء فارس[2] .

والرواية التى تنسبه إلى الأنصار لم تثبت تاريخا ، ولم يقل بها مؤرخ عربى ، فإجماع رجال التاريخ ، على أنه فارسى الأصل ، كما هو فارسى المولد .

يقول ابن كثير[3] : «هو الحسين بن منصور بن محمى الحلاج أبو مغيث ، ويقال أبو عبد الله ، كان جده مجوسيا ، اسمه «محمى» من أهل فارس من بلدة يقال لها البيضاء . ونشأ بواسط ، ويقال بتستر» .

---

(١) البيضاء مدينة مشهورة بفارس . وهى أكبر مدينة فى كورة « اصطخر » وسميت البيضاء لأن لها كما يقول ياقوت فى معجمه . قلعة تبين من بعيد ويرى بياضها . وكانت معسكرا للجند الإسلامى ، ومن أبنائها التاريخيين العلامه النحوى سيبويه .

(٢) الجزء الأول من المجلد الثامن ص ١٧

(٣) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٣٢

ويقول المستشرق « ماسنيون » : إن البقعة التي ولد فيها كانت من أعظم مناطق النسيج في الإمبراطورية الإسلامية . وإن والده كان من عمال النسيج ، ولهذا سمي حلاجا ، وهو استنتاج فكري من « ماسنيون » لم يقم عليه من التاريخ شاهداً أو دليلا .

أما الرواية التاريخية التي أوردها ابن خلكان في وفيات الأعيان ، فتروى عن ضمره بن حنظلة السماك قال : « دخل الحلاج واسط[1] وكان له شغل ، فأول حانوت استقبله كان لقطان ، فكلفه الحلاج السعي في إصلاح شغله ، وكان للرجل بيت مملوء قطنا ، فقال له الحسين : اذهب في إصلاح شغلي ، فإني أعينك على عملك ، فذهب الرجل ، فلما رجع رأى كل قطنه محلوجا وكان أربعة وعشرين ألف رطل ، فسمي من ذلك اليوم حلاجا ولازمته هذه الكنية طول حياته » .

وقد أورد ابن كثير[2] أيضا هذه الرواية ، وأضاف إليها رواية أخرى تقول : إن أهل الأهواز أطلقوا عليه هذه التسمية لأنه كان يكاشفهم بما في قلوبهم فسموه . « حلاج الأسرار » .

وبعد مولد الحلاج بقليل ، اضطربت أحوال والده المالية ، فرحل من بلدة « تور » إلى مدينة « واسط » ينشد العمل في ميادينها الاقتصادية الكبيرة .

وكانت واسط ، مركزا من مراكز الإشعاع الفكري والروحي في فارس أسس بها الأشاعرة مدرستهم الكبرى ، وأوجد فيها العلامة أبو علي الجبائي ، نشاطا ثقافيا ، وتياراً علمياً حراً ، يخضع كل شيء لمنطقه وطرائقه .

---

(٢) واسط مدينة بناها الحجاج الثقفي تقع بين البصرة والكوفة — معجم البلدان ج ٤ ص ٨٨١

(٣) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٣٣

كما أقام بها الحنابلة مدرسة للقراء ، ومعهدا للحديث ، واتخذوا من مساجدها مقاعد للبحث والدرس ، والجدل والحوار .

وفى هذا الجو العلمى الحر الحىّ ، نشأ الحلاج ، ولفت إليه الأنظار منذ طفولته ، بذكائه المتوثب اللماح ، وشفا فيه روحه ، وتفتح قلبه ، وحبه وإقباله على ينابيع العلم والمعرفة ، حتى ليحدثنا تاريخه ، إنه قرأ القرآن الكريم على أعلام القراء فى عصره ، وحفظه وجوده ، وهو فى العاشرة من عمره ، وتعمق فى فهم معانيه ، تعمقا ليس من طبيعة الطفولة الغضة .

كما اشتهر بالإرادة القوية الموجهة ، والرياضات والمجاهدات الروحية الشاقة ، والزهد فيما يقبل عليه لداته من شئون الحياة ، ولهو الطفولة ، والاستغراق الكامل فى الصلاة والتأمل والتعلق بالدراسات التى تتناول المعرفة الروحية ، وما تحتوى عليه هذه المعرفة من أنوار وأسرار .

وأقبل الحلاج بكل مافى قلبه من أشواق ، وما فى روحه من إشراق على علوم عصره من فقه وتوحيد وتفسير وحديث وحكمة وتصوف . ولكنه كما يقول ماسنيون : « سرعان ما راح يبحث عن المعنى الرمزى الذى يرفع دعاء الروح إلى الله :

كان الحلاج يحس فى أعماقه دائماً تلهفاً واشتياقاً إلى معرفة أرق وأدق مما يقرأه فى صفحات الكتب ، ومما يستمع إليه فى دروس العلم والعلماء .

معرفة تدنيه وتقربه من الله ، وتمنحه المعراج الذى تصعد عليه روحه إلى هداه .

كان يحس أن لروحه عند الصفاء والنقاء ، سبحات ملهمات ، تترقرق فيها معان مشرقات .

وأن قلبه عندما يأخذه الوجد الإلهى ، والحب الربانى ، تتفتح فيه

منافذ يطل منها على ملكوت رائع الجلال والبهاء ، تلتمع فى آفاقه حقائق أعلى وأسمى مما يتجادل فيه الناس ويتخاصمون .

وإذن فليعمل الحلاج على أن ترتفع روحه بالحب ارتفاعاً يجعلها أهلا لهذه الحقائق التى يهبها الله لمن ارتضى من عباده ، واصطفى من خلقه .

وانقطع الحلاج عن دروسه ، وأقبل على ملكوت السماء والأرض يقلب وجهه فى آفاقهما ، ويتأمل أسرارهما ، ويقرأ بين سطورهما الخفية أسراراً وأسراراً .

وعكف على روحه وقلبه ، بالتصفية والمجاهدة ، حتى أعطيا كنوزهما ، وتفجرا معرفة ونوراً .

ونذر نفسه لربه سبحانه ، وأقبـــل عليه بكل ذاته ، وقد اشتعلت أحاسيسه بالوجد ، والتهبت عواطفه بالحب ، إنه يستهدف ارتباط قلبه بالله ، وقرب روحه منه ، قرباً يفنى فيه عن كل شيء ، ليبقى له بعد ذلك كل شيء .

إنه فناء الخالدين بربهم ، وهو فناء وخلود ، لا يعرفه إلا الأفق الصوفى .

وأخذ الحلاج نفسه بهذا المنهج أخذاً عنيفاً قاسياً ، وألزم نفسه به طوال حياته ، حتى غدا طابعه الذى تشكل به وجوده المادى والروحى .

ولقد سئل عن المريد الصادق . فقال : « هو الرامى بقصده إلى الله عز وجل ، فلا يعرج حتى يصل » .

وهى كلمة تصور لنا منهج الحلاج وهدفه الذى عاش له وبه ، لقد

رمى بقصده إلى الله سبحانه ، وسخر كل ملكاته العقلية والروحية لتحقيق هذا الهدف ، بل اتجه بكل أذواقه ومعارفه إلى آفاق هذا المعنى .

فكلمة التوحيد ، وهى السطر الأول فى كتاب الإسلام ، لا تكون صدقا وحقا كما يقـــول الحلاج ، إلا إذا عشناها وتذوقناها ، وفنينا فى معناها ، حتى كأننا حين ننطقها نسمعها من الله جل جلاله ، وحينئذ تنبثق فى شغاف القلب ، وعين الوجـــدان ، ويموج كل شيء بالجلال والنور والمعرفة .

والقرآن الكريم كلام الله فيجب على المؤمن أن يتذوق حقائقه تذوقا روحيا ، وأن تتمثل فيه هذه الحقائق تمثلا عملياً إيجابيا .

ألم تقل السيدة عائشة رضوان الله عليها ، وهى تصف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « كان خلقه القرآن » .

ويمشى الحلاج بهذا الفهم خطوات حتى يقول : « إن المؤمن الصادق يصل به الأمر حتى تكون . « بسم الله » منه بمنزلة « كن » من الله سبحانه .

أى أن « بسم الله » إن نطق بها من تحقق بحقائق القرآن ؟ وتذوقها وعاش بها تكون « بسم الله » منه ، لها من القوة والأثر ما لكلمة « كن » من الله سبحانه .

ومن كلمات شبابه التى تصور لنا منهجه قوله : « حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك والاتصاف بأوصافه » .

إنها البذرة التى ستخرج منها فلسفة الحلاج فى مقام الفناء !! ؟ ويقول الحلاج : « من لاحظ الأعمال حجب من المعمول له — الله — ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال .

وهذه الصورة المثالية السامية التى تصورها لنا تلك الكلمة ، سنجدها بصور أكمل وأسمى فى جهاد الحلاج وتضحياته .

تلك بعض خواطر الحلاج القلبية والروحيـة ، وهو فى مطلع شبابه قبل أن يسلك المنهج الصوفى على شيوخـه ، وقبل أن ينتظم فى المدرسة الروحية العالمية ، مدرسة التصوف ، التى كانت تهيمن على العراق وفارس خلال القرن الثالث الهجرى .

شيوخه فى الطريق :

ولما بلغ الحلاج الثامنة عشر من عمره ، اتصل بالإمام الصوفى سهل ابن عبد الله التسترى ، وتلقى على يديه آداب الطريق ومنهجه .

وأعجب الحلاج بشخصية سهل ، وبادله شيخه الإعجاب والتقدير . وتلازما ليل نهار ، حتى بلغ الحلاج العشرين من عمره ، فاعتزم أن يخرج من مدينة واسط الصغيرة إلى العالم الفسيح ، فرحل إلى البصرة بعد أن ودع شيخه ، وترك كما يقول جانباً من قلبه معه .

وفى البصرة تتلمذ على شيخ من شيوخ التصوف ، هو عمر المكى الذى سيكون له أبعد الأثر فى حياته ، وفى نكبته ، ومن يده تلقى الحلاج خرقة الصوفية وعاش حياتهم .

ثم تزوج الحلاج فى البصرة ، بأم الحسين بنت أبى يعقوب الأقطع من زعماء البصرة وأهل الصدارة فيها .

واتسم هذا الزواج بالحب والإخلاص وصاحبه التوفيق حتى النهاية ، فقد وفت له زوجه فى مجده وفى محنته وثبتت إلى جواره ، ورزق منها بثلاثة أبناء .

وكان شيخه المكى فى خصومة ملتهبة مع صهره ، امتدت آثارها إلى الحلاج ، فانقطع ما بينهما من مودة ، وقامت مكانها خصومة حادة ، حتى ضاق صدر الحلاج بالبصرة فارتحل إلى مدينة بغداد .

الحلاج فى بغداد :

يقول صاحب العبر : « تصوف الحلاج ، وصحب سهل بن عبد الله ، ثم قدم بغداد فصحب الجنيد ، والثورى ، وتعبد وبالغ فى العبادة » .

وفى بغداد تتلمذ على أبى القاسم الجنيد سيد الطائفة ، وشيخها الكبير ، وتوثقت صلتهما ، واشتكى اليه من شيخه المكى فأمره الجنيد بالصبر ومراعاة حق شيخه . . . ثم أخذ ما بين الجنيد والحلاج يفتر ، فلكل منهما شخصيته ومنهجه ، وباعدت بينهما أحداث سنعرض لها فى الفصول القادمة إن شاء الله .

ويروى عن الجنيد قوله : « إننى أرى كثيراً من فضول الكلام فيما يقوله الحسين بن منصور » .

ثم اتصل الحلاج برجال مدرسة رسالة القشيرى ، والتقى بصديق عمره « الشبلى » كما اتصل بمدارس التصوف وأعلامه اتصالا لم يطل أجله . . . فقد أخذ الحلاج يكون لنفسه منهجاً ومدرسة وزعامة ، ذات أهداف دينية ودنيوية معا . . . وكانت بغداد عاصمة الدنيا حضارة وثقافة ، وكانت تقدم للحلاج الكثير من المعرفة ، ومن الروحية ، ومن دوافع الحركة والنشاط والجهاد . . . وفى بغداد تلاقت الثقافات العالمية ، كما تلاقت المذاهب والملل والنحل المختلفة . وتصارعت كل هذه الألوان الفكرية وتلاحقت وصبغت الحياة الإسلامية بصبغتها وطابعها . . . ورأى

الحلاج فى بغداد الصراع الفكرى المشبوب ، ورأى فى بغداد العصبيات القلبية بين الفرس والترك والعرب ، وبين القبائل العربية المختلفة ومثيلاتها . كما رأى ترفاً ماجناً هلوكا ، ونظاماً فاسداً ظالماً ، وخلافة متكبرة متألهة .

وآمن الحلاج بأن التصوف هو الذى يستطيع أن يهيمن على هـــذه المذاهب الفكرية المتعارضة ، ويوحدها فى منهجه الإيمانى ، كما يملك القدرة على محو هذه العصبيات الجامحة بروحانيته العالية ، وما تشع من أخوة ، وما تلهم من محبة !! وفوق هذا وذاك : فإن التصوف يستطيع بطبيعته النقية المترفعة أن يحارب الترف والفساد والتأله الذى فرضته الخلافة العباسية على المجتمع الإسلامى .

الحلاج والأخوة الروحية :

ومن ثم أخذ الحلاج يفكر فى إيجاد كتلة شعبية تدعو إلى أخوة روحية فى الله ، وتستهدف وحدة العالم الإسلامى ، والنهوض به خلقياً وتعبدياً حتى يعود إلى منهج الصدر الأول وقوته ، وروحانيته وإيمانه .

أخوة روحية تنبثق منها الوحـــدة الكاملة فى الشعور والمثل ، والمناهج والغايات .

فالمسلمون قرآنهم واحد ، ورسولهم واحد ، وعباداتهم قامت على النظام والوحدة ، فالصلاة موقوتة بوقت محدد ، وكلها فى جماعة منتظمة فى صفوف متراصة ، تتجه إلى قبلة واحدة ، وتفنى أحاسيسهم فى استغراق تعبدى مشترك .

والصيام يبدأ بأذان الفجر ، وينتهى بأذان الغروب ، كأنه نفير عام يحشد الجنود ، جنود الروحانية الإسلامية ، ليدربهم على النظام والقوة ، والوحدة الكاملة .

والحج مؤتمر المسلمين الأكبر ، تضمهم بقاع مقدسة محددة ، وشعائر مفروضة مشتركة ، ويرمون عن يد واحـــدة جمرات موجهة إلى رمز عدوهم المشترك .

ومع هذا فقد اختلفوا وتمزقوا ، وأعرضوا عن رسالتهم الخلقية ، وعباداتهم الربانية .

وأخذت هـــذه الخواطر تراود الحلاج ، فتؤرق جفونه ، وتوقظ أحاسيسه ، وتحرك قواه ، فأخـذ يلقى بنفسه فى تيار الحياة ، ويتصل بالجماهير ، ويوثق صلاته بطوائف من الجند والقادة والأمراء والزعماء ، اتصالا ، لم يرض عنه المتزمتون من شيوخ التصوف ، ولم ترض عنه الخلافة ، ولم ترض عنه القوى المختلفة التى تحرك بغداد ، وتحكم العراق ، وتهيمن بالتالى على العالم الإسلامى .

مجاهداته الروحية :

ولكن هذه الصورة التى تمثل لنا الحلاج فى إهاب رجل الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى ، لم تكن كل حياة الحلاج ، ولا كل جهاده ، ولا يمكن لهذه الصورة أن تمثله تمثيلا كاملا .

فالحلاج كان يتقلب فى حياتين ، ويعمل فى حقلين ، وكان يملك القدرة على المزج بينهما ، كما يملك الطاقة على النهوض بهما معا .

كان الحلاج خلال معركته الإصلاحيـــة ، ودعوته الشعبية ، يسلك طريقه الصوفى ، ويسلكه فى عنف وقوة .

لقد انفصم ما بينه وبين شيوخه فى الطريق الصوفى ، فلم يتم تدريبه ، ولم يكتمل إعداده ، ولم تمهد له الأيدى المدربة المبصرة ، أيدى المربيين الروحانيين طريق الكمال الروحى .

والطريق الصوفى كما يقول المتصوفة ، طريق وعر شائك ، تمتزج فيه البروق الخادعة ، بالأنوار الهادية ، والخواطر المضللة بالإلهامات المشرقة وفيه الاستدراج الخفى ، والامتحان الربانى ، وفيـه العوائق النفسية ، والتيه القلبي ، والخداع الذوقى ، ولهذا اشترط الصوفية جميعاً واتفقوا على أن الشيخ ضرورة فى الطريق لا غنى عنه للسالك المريد . . إنه كالطبيب للمريض ، يعرف المزاج والمرض والدواء ، وكالمهندس للبناء ، إنه النور الذى يرشد ، والمربى الذى يوجه ، والدليل المبصر الذى يفرق ويميز بين

الخواطر والإلهامات ، ويملك القدرة على اختصار الطريق ، كما يملك التجربة الواعية التى ترسم لكل سالك ومريد ما يلائمه ، وما يتفق مع ذوقه واستعداده وطبيعته .

والشرط الأول فى الطريق أن يستسلم المريد لشيخه استسلاما كاملا بلا اعتراض أو توقف ، وهى دكتاتورية لا تتفق مع طبيعـــة الحلاج الثائرة ، فتمرد عليها واختصم بشأنها مع شيخه عمر المكى ، وتجادل فيها مع شيخه الجنيد ، ولم يرض الشيوخ عن هذه الروح الثائرة ! ؟

واستقل الحلاج بنفسه ، وأخذ يسلك الطريق وحـده ، وأخذ يجاهد نفسه ويدربها ويكلفها أشق ما فى التصوف من تكاليف ، ويفرض عليها أقسى ما فى المنهج الروحى من وسائل التجرد والزهد والعبادة والرياضة .

وابتدع لنفسه طريقاً حلاجياً استهـــدف به الكمال القلبى والخلقى ، واتصال روحه بربه اتصال حب وشوق وفناء ، اتصالا سيعرف فى التاريخ باسم « معراج الحلاج » ، وهو معراج يتفرد فى تاريخ الحياة الروحية ، بخصائص وسمات لم تعرف لسواه .

وكان الحلاج فى جهاده الروحى ، وفى نضاله الشعبى ، سريع التقلب والحركة ، إن فى روحه ثورة ، وفى قلبه أهواء متعددة ، وفى وجدانه وأحلامه استشراف وتطلع لآفاق يحسها ويدركها ببصيرته واضحة حيناً ، غامضة أحياناً ! ؟

إن روحه لم تظفر بعد بأفقها المستقر المبين ، وإن قلبه لم يصل بعد إلى مقام الثبات والتمكين ، ومن هنا جاء التلون فى السلوك الذى اتسمت به حياة الحلاج فى دورها الأول .

يقول ابن كثير[1] « . . . وقد كان الحلاج يتلون فى ملابسه ، فتارة يلبس لباس الصوفية ، وتارة يتجرد فى ملابس زرية ، وتارة يلبس لباس الأجناد ، ويعاشر أبناء الأغنياء والملوك والقواد ، وقد رآه بعض أصحابه فى ثياب رثة ، وبيده ركوة وعكاز وهو سائح ، فقال له : ما هذه الحالة يا حلاج ؟ فأنشأ يقول :

لأن أمسيت فى ثوبى عديم لقد بليا على حر كريم
فلا يغررك أن أبصرت حالا مغـــيرة عن الحال القديم
فلى نفس ستتلف أو سترى لعمـــرك بى إلى أمر جسيم

كان الحلاج يتلمس طريقه إلى أمر عظيم جسيم ، طريقه بشقيه الصوفى والإصلاحى ، وقد اعتزم فى إصرار حاسم ، أن يبلغه أو يهلك دونه .

(١) البداية والنهاية ص ١٣٤ ج ١١

الحلاج يستعرض المنهج والرسالة :

آمن الحلاج – وهو يشق طريقه إلى الله على أجنحة من رياضاته العنيفة الشاقة ، وأشواقه القلبية المتقدة – أن هناك صلات لا تنفصم بين الكمال الروحى الذى ينشده ، والإصلاح الإيمانى الذى يستهدفه .

إنه ليحس بأن فى أعماقه قوى ضخمة ، تفور وتتصارع ، وتتهيأ للحركة والوثوب . . . ويشعر بأن هناك فى أبعد عمق من نفسه وقلبه ووجدانه تتفجر ينابيع ، وتتدفق تيارات وثورات ، يرى بعين خياله وبصيرة أحلامه أنها ستغير وجه الحياة – حياته ، وحياة الناس كافة – ! !

لقد آن للعالم الإسلامى أن يبعث من جديد ، على نور من كتاب الله وحبه ، وشعاع من حياة الرسول وهديه ، وما أروع وأجمل أن تتحقق أحلام الحلاج ! ! فتشهد الدنيا أمة قرآنية تقوم بعين الله ورعايته ، يحكمها ويوجهها أقطاب عباد أتقياء أصفياء ، يحبون الله ويحبهم ، ويملأون الكون بمواجيدهم وضراعاتهم ، وأنوار إلهاماتهم ، ويحملون الناس على الجادة والطريق الذى اصطفاه الله وارتضاه ؛ فلا تفترق السياسة عن الصلاة ، ولا الحكم عن الحب ، ولا العمل عن العبادة ؛ فتتحول الدنيا من غابة للشهوات والصراع ولهو الشياطين إلى مساجد للحب والسلام ونجوى الساجدين العابدين .

إنها أحلام الحلاج ، التى تملأ عليه آفاقه ، والتى تعيش فى أعماقه ،

وتبعث الحركة والاضطراب فى حياته ، نرى هل هو أهل لها بعد ؟ وهل يستطيع النهوض بها ، فتتحول الأحلام والأمانى إلى حقائق حية ، تسعى وتعيش وتخلد ؟

وهل تستطيع الصوفية ، وهل يستطيع المنهج الصوفى أن يقـــدم له القاعدة الصلبة التى يرتكز عليها ، حتى يثب من فوقها ؟ لقد جاهد الصوفية أنفسهم فى سبيل التصفية والتحلية والتطهر جهاداً خالداً لم تعرف صحف الجهاد النفسى مثيلا له من قبل ، وفرضوا على أنفسهم مناهج فى السلوك ، وآداباً فى الطريق ، وواجبات فى العبادات ، وأخلاقاً فى الحياة ، هى أسمى تصورات الكمال التى عرفها هـــذا الوجود . . . وامتلأت أيديهم بثروة ضخمة من التجارب العملية الكاملة التى قاموا بها وحدهم وهم يصعدون معارج الوصول إلى أفق الحب الإلهى ، وسموات الإلهام والنجوى . . . وتركوا للإنسانية زاداً صالحاً من معارفهم وإلهاماتهم وعطراً زكياً من أورادهم وعباداتهم ، وسيراً وصحفاً لهم تشع هدى ، وترسل نوراً ، وتهدى طريقاً .

ثم عاش الصوفية بعـــد ذلك حياتهم داخل أنفسهم ، أو داخل حلقات دروسهم ، وساحات مريديهم ، ولم يمدوا أعينهم إلى ساحة الحياة الكبرى ، وإلى ميادين جهادها الأخرى .

ولقد آمن الحلاج بأن المنهج الصوفى بكمالاته فى الأخلاق والعبادات والجهاد الروحى ، وبمواجيده وأذواقه ، ومعارفه فى الحب الإلهى ، إنما يمثل وجهاً واحداً من الدعوة الإسلامية ، ووجهاً واحداً من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، إنه يمثل مرحلة الإعداد فحسب ! ! ثم تأتى فى أعقابها

مرحلة الكمال ، مرحلة الجهاد العام لتبليغ الدعوة ، وحمل الناس عليها ، والدفاع عنها . فلو اكتفى الأنبياء والأولياء والصالحون المصلحون والزعماء بأنفسهم ولم يحملوا ما تلقوا وما تعلموه وآمنوا به إلى النـاس ، ولم يجاهدوا فى سبيله حتى تعلو كلمات الله ، وتسود تعاليمه ورسالاته لفسدت الأرض ، وامتطاها شياطين الجن والإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف الأرض غرورا . . .

ولقد فسد عصر الحلاج فساداً كبيراً ، وتنابذ الناس واختلفوا ، وتفرقت بهم السبل ، وأغرقوا فى الشهوات والملذات والترف الملوك . . . وكانت قمة الفساد قصور الخلفاء والأمراء ، فقد غدت مسرحاً لعبث الجوارى والإماء ، ومرتعاً للمرتشين والمقامرين والملحدين ! ! .

ومع هـذا — فها هى بغداد — عاصمة الخلافة — تموج بالنجوم الكبار من أعلام التصوف وأئمته : الجنيد — التسترى — المكى — الشبلى — الثورى . . . وها هو العراق — فى كل سهل وجبل وقرية — فيه صوفية عباد أتقياء أصفياء ، لهم مكانتهم وأقدارهم . . . ! !

إن سهل بن عبد الله التسترى ليقول : إنه دخل البصرة فوجـد بها أربعة آلاف من العارفين ! ! البصرة وحدها يعيش بها هـــذا العدد الضخم من العارفين الواصلين ، فكم منهم فى بغداد ؟ وفى كل مدينة من مدن العراق ؟ ومع هذا — فبغداد والعراق قد أصبحتا علماً عالمياً على التدهور الخلقى ، والانحـلال الدينى ، والفساد الاجتماعى . . ماذا فعل الصوفية حيال كل هذا ! ! ؟ ولهم المكانة ولهم الجاه ، ولهم الحب والتقدير عند الخاصة ، والسلطان الشامخ على العامة .

لقد فكر الحلاج فى كل هذا وأطال التفكير ، فلم يرض عنه ، ولم يطمئن اليه ، وعبر عن سخطه بكلمات من لهيب وبرق . . . إن الله سبحانه — كما يقول الحلاج — لن يقبل من الناس عباداتهم إذا اختلت سياستهم ، وفسدت أخلاقهم ، ثم استكانوا للبغى والفساد ! ! وإن الله سبحانه — كما يقول الحلاج — لن يقبل من أصحاب الأردية والأكسية دندناتهم وكلماتهم ما لم ينهضوا للحق ويجهروا به ، ويقدموا دماءهم فى ساحة الاستشهاد والفداء .

وقد آن لرجل من رجال الله أن يرفع صوته ، ويؤذن بالدعوة ، وإن الحـــلاج ليهب نفسه ويرصدها لهذه الغاية الكبرى . وإن كان يمسك نفسـه حيناً ، ويقلب وجوه الرأى أحياناً ، فليس عن تردد أو ضعف ، إنه يريد أن يستوثق من نفســـه ، وأن يطمئن إلى عدته ، هل كملت رياضاته ؟ وهل نضجت مجاهداته ؟ وهل خلص له قلبه ؟ إن قلبه لينازع عقله فيما يريد ، وإن وجدانه ليصاول تفكيره فيما يجب . . . لقد تعشق بقلبه ووجدانه وروحه المنهج الصوفى ، ورصد كل كل قواه منذ صباه لحب الله وعبادته والجهاد فى مرضاته ؛ حتى يصل إلى فناء كامل ، تفنى فيه إرادته فى إرادة الله ، ونوازع بشرية فى كمالات عبادته ، وأهواء نفسه فى لذة أنسه وجلال قربه .

وإن هذا الجلال ، وهـذا الحب ، وهـذا الفناء ليكاد يسرقه عن نفســـه ، وعن رسالته حيناً وحيناً يخيل اليه أنهما ارتبطا واتحدا ، وأصبحا شيئاً واحـــداً . إنها عاصفة من التفكير المزلزل ، المتعدد الألوان والصور ، خلص له منها أمر يقينى اطمأن اليه اطمئناناً لم يجده عند سواه .

إنه فى حاجة إلى خلوة كاملة ، يعيشها متحنثاً متطهراً ذاكراً قانتاً ، خلوة تؤهله أو تدنيه من الكمال ، وتزوده وتعده للجهاد العنيف الشاق الذى اعتزم القيام به فى وجه جميع القوى .

ومن ثم اعتزم الحلاج أن يرحل إلى بيت الله المقدس ؛ ليخلو بنفسه فى أرض الوحى والإلهام ؛ ليزداد قرباً من ربه ، وكمالا فى نفسه ، وهما عدته ومعراجه إلى هدفه .

الحلاج فى بيت الله :

وفارق الحلاج بغداد فجأة إلى مكة المكرمة ، وبعد أن طاف بالبيت العتيق ، وامتلأت عيناه بالمشاهد التى شهدت خطو الملائكة وجهاد خاتم النبيين ، نذر البقاء عاما للعمرة فى حرم البيت المبارك للتطهر والنسك ، والتصفية القلبية والإعداد الروحى .

عاش الحلاج فى مكة عاماً كاملاً فى صمت مطلق ، وتأمل متصل ، وعبادة ونجوى ، عاش فى — الحجر — لا يستظل تحت سقف ، شتاء ولا صيفاً . عن أبى يعقوب النهرجورى[1] قال : « دخل الحلاج مكة أول دخلة وجلس فى صحن المسجد سنة لم يبرح من موضعه إلا للطهارة والطواف ، ولم يحترز من الشمس ولا من المطر ، وكان يحمل إليه فى كل عشية كوز ماء ، وقرص من أقراص مكة ، وكان عند الصباح يرى القرص على رأس الكوز وقد عض منه ثلاث عضات أو أربعة فيحمل من عنده » .

عاش الحلاج حياته العجيبـــة القاسية الشاقة عاماً كاملاً ، ما هى خواطره ؟ وما هى تأملاته ؟ وما هى القوة التى تزود بها فى خلوته ؟ لقد لزمت كتب التاريخ الصمت حيال هذه الفترة من حيــاته ، إلا أن المستشرق « ماسنيون » يحاول كعادته أن يلقى الظلال والشبهات ، وأن

(١) ص ٢٦ و ٢٧ أخبار الحلاج ، لعلى بن أنجب الساعى .

يفسر حياة الحلاج التفسير الذى يصل به إلى الفكرة التى استقرت عنده وهى أن الحلاج كان يحاول أن ينهج نهجاً مسيحياً فى تنسكه ودعوته ، وأنه كان يتشبه بمريم البتول حيناً ، وبالسيد المسيح أحياناً . . . يقول ماسنيون : « إن الحلاج فى مكة كان يتشبه بمريم ابنة عمران ، وأنه كان يهيء نفسه لميلاد كلمة الله فيه » .

إن تأملات الحلاج وأحلامه ، وخواطره ورياضته بمكة ، تصورها لنا أولى كلماته التى نطق بها بعد عام كامل من صمته ، لقد خرج الحلاج من عزلته فتلقاه أتباعـــه يسألونه عن شأنه ؟ فترجم عن أمره ، بتلك الجملة القصيرة ، المعبرة المصورة لحالته حيث قال :

« لو ألقى مما فى قلبي ذرة على الجبال لذابت » إنه ثائر أو عابد من لون جديد ، تلاقت فى أثوابه خرقة الصوفية بكسوة الجندية ، وامتزجت فى قلبه أشواق الحب الإلهى بثورة الإصلاح السياسى ، واجتمعت فى روحه طهارة العابدين ورقتهم ببطولات المصلحين وصلابتهم ، وكانت هذه الأمشاج من الصفات المتناقضة تعلوها صفة ثابتة تعطى الحلاج طابعه الدائم .

ذلك هو الوجد الصوفى ـــ الذى كان يأخذه أخذاً عنيفا ملحا ، يفنى فيه عن نفسه حينا ، وعن رسالته أحيانا ، ويدفع به زمناً إلى الخلوة القاسية والهرب من الناس ، أو يزج به قسراً فى تيار الحياة ومعاركها . . . ذلك الوجد الصوفى الذى سيبلغ قمته فى سنواته الأخيرة ، بل ذلك الوجد الذى سيترك بصماته على تاريخ الحلاج فيملؤه غموضاً واضطرابا ، ويضفى عليه فتنة وخيالا ساحراً .

تنقلات الحلاج فى العالم الإسلامى :

غادر الحلاج مكة إلى الأهواز ، ومعركته الباطنية لا تزال مشتعلة ، رغم السلام الظاهرى الذى اكتسبه من رياضاته وخلوته .

لقد رسم فى عزلته خطوطا ، وتزود بقوى ، واعتزم أن يدفع بنفسه إلى ساحة الكفاح . . . خرج داعيا إلى الله ، مبشراً برسالته ، واتجه بدعوته إلى طبقة المثقفين من الكتاب ورجال الأعمال ، وإلى الجنود والقواد ، وجماهير الصوفية . . . وقسم الحلاج منهجه إلى خطوط رئيسية : ناحية دينية صوفية ، جوهرها عبادة الله وحبه ، حبا أساسه الوجد والشوق ، حتى يجد الإنسان ربه فى أعماق نفسه ؛ وبذلك يصل إلى الكمال الروحى والخلق ، وإصلاح الأداة الحكومية الغارقة فى الترف والشهوات والانحراف ؛ حتى يستقيم الميزان الموجه لحياة الناس ، ووحدة الأمة الإسلامية التى مزقتها الفلسفات والعصبيات ، حتى تستطيع أن تنهض برسالتها ، وتتجمع لديها القوة اللازمة لحمايتها .

وكان الحلاج فى دعوته يتجنب التسميات المميزة بين الفرق الدينية ، حتى لا يظن به الجنوح إلى فرقة بذاتها — وهى العقبة الكبرى فى وجه كل دعاة الإصلاح — وكانت صيحة الحلاج المدوية هى : أن يعود الناس إلى الأساس الأول ، إلى الإسلام كما جاء ، محجة بيضاء ، وكما طبق فى عهد الرسول توحيداً صافياً وعملاً لله خالصاً ، وأن يتخلى الناس عن هذه المذاهب التى حجبتهم عن الجوهر ؛ فالمذاهب — كما يقول — إن

هى إلا وسائط يجب اجتيازها إلى روح الإسلام . . . يقول العلامة ابن كثير فى البداية والنهاية : « كان الحلاج فى عباراته حلو المنطق ، فيه تعبد وتأله وسلوك » .

وغضب المتزمتون من رجال التصوف ؛ لاندفاع الحلاج فى التيار السياسى ، وقابل الحلاج غضبتهم بأعنف منها ، فنبذ خرقة التصوف ، ريثما يتكلم بحرية مع أبناء الدنيا كما يقول .

وعظم أمر الحلاج فى الأهواز ، وفتنت به الجماهير ، ونسبت إليه العجائب ، وتلونت هذه العجائب بخيال العامة ، حتى غدت ضرباً خارقاً لقدرة الإنسان ! !

وكان الحلاج — كما يقول الاصطخرى — باهر الشخصية ، ساحر الكلمة ، رائع السمت ، محبباً إلى القلوب . أو كما يقول العلم الحديث : فيه استهواء روحى للجماهير . . . ثم وسع الحلاج نطاق دعوته ، فارتحل إلى خراسان ، وفى صحبته العشرات من الحواريين ، واستمر — كما يقول ماسنيون[1] — يدعو ويعظ الجاليات العربية فى شرق إيران ، ويبث دعوته فى المدن ، ويقيم على الحدود ، ويرابط مع المرابطين فى الثغور ، وقضى فى ذلك خمس سنوات . ثم يعود إلى الأهواز ، بعد أن ترك دوياً يتردد صداه فى آفاق خراسان .

ثم يدعوه تلميذه العظيم ، الواسع النفوذ — حمد القنائى — إلى الإقامة ببغداد ؛ فيرحل إليها مع أهله وطائفة كبيرة من مريديه وأتباعه . . . ويدخل الحلاج بغداد بعد أن سبقته شهرته وعجائبه ؛ فيحدث فى بغداد

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام .

هزة ، يتردد صداها فى البيئات الصوفية والعلمية ، ترددها فى قصور بغداد العالية وأكواخها الساذجة .

ثم يذهب الحلاج إلى مكة للمرة الثانية مع أربعمائة من تلاميذه ، ويعاود الاختلاء والرياضة ، حتى يتهمه بعض خصومه بأنه يقوم بأعمال السحر وتحضير الجن ؛ لاعتصامه بقمة جبل « أبى قبيس » وانقطاعه عن الناس . ومن مكة يخرج الحلاج إلى رحلته الكبرى فى سبيل الدعوة ، يخرج إلى التركستان والهند حيث يعتنق الإسلام على يديه خلق عظيم .

واتخذ البحر طريقاً ، وصعد فى السند من « ملتان » إلى كشمير ، ويمضى فى طريقه صاعداً ناحية الشمال الشرقى حتى « طرقان » مع القوافل الأهوازية . لقد كان الحلاج — كما يقول « ماسنيون » : يفكر فى هداية الإنسانية كلها عبر الأمة الإسلامية .

وعظم أمر الحلاج فى بلاد ما وراء النهر والهند والصين ، فكانوا يكاتبونه[1] من الهند بلقب « المغيث » ومن بلاد الترك « بالمقيت » ومن خراسان « بأبى عبد الله الزاهد » ومن حورستان « بالشيخ حلاج الأسرار » وسماه أشياعه ببغداد « بالمصطلم » وسموه فى البصرة « المحير » وذهبت الدنيا تردد أحاديثه وقواه السحرية الخارقة ، أو كراماته الباهرة .

يقول صاحب شذورات الذهب[2] : وبلغ من شأنه أن كان يخرج الأطعمة فى غير وقتها ، والدراهم من الهواء ، ويسميها دراهم القدرة ، وكان يعرف الكيمياء والطب . . . ونشر الحلاج رسائله الكبرى عن

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

(٢) ج ٢ ص ٢٥٤

السياسة ، وواجبات الوزراء ، مطالباً بإقامة حكومة إسلامية حقاً . وزارة تحكم بالعدل بين الناس ، وخلافة كما يقول : شاعرة بمسئوليات وظيفتها أمام الله ، بما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم[1] .

ومن وراء النهر عاد الحلاج إلى مكة ، يدفعه وجد صوفى ، وحنين غلاب إلى الخلوة ، وإلى رياضاته العنيفة القاسية ، فى أرض النبوة والإلهام ، وليتزود فى عزلته الروحية بقوة إيمانية ، قوة تؤهله لمواجهة الحياة فى معركة بطولية حاسمة .

هنالك فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، حيث الصراع الفكرى والدينى مشتعل الأوار فى البيئات العلمية ، وحيث الترف والشهوات والفساد يخنق المجتمع الإسلامى . هنالك كانت معركة الحلاج الكبرى التى سوف يقدم روحه قرباناً لها . . . وإلى بغداد يعود الحلاج !! ليشعل فيها كل شىء ، وليحترق فى أتونها .

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام .

الحلاج فى عاصمة الخلافة :

وخفق قلب بغداد للنبأ العظيم !! لقد جاء الحلاج إليها تسبقه عواصف مرعدة مذهلة ، من الدعاوى العريضة المتناقضة ، جاء إليها بعد أن طوف بالأرض ، فملأ آفاقها دوياً ، وأسمع آذانها عجباً .

فقد ترك الحلاج فى كل بقعة رن فيها خطوه ما يختلف فيه الناس ، وما يتخاصمون فى أمره ، فما رأى الناس من قبل رجلا له سمته وشخصيته وقواه وروحانيته ! !

رجلا يتصــــدى لهداية الإنسانية كافة ؛ فيطرق أبواب العالم شرقاً وغرباً ، مبشراً وداعياً إلى الله سبحانه ، دعــــوة أساسها وروحها حب الله ، حباً تذوب فيـه شهوات الدنيا ، وينطفىء لهيبها ، وتتضاءل فيه أهواؤها وسحرها ؛ فإذ بكل ما فيهـا قبض الريح ، وإذ تاجها ونعيمها وفوزها الأكبر فى الاتصال بواجب الوجود ومبـــدعه ، اتصالا ينير الروح ، ويشعل القلب ، ويوقظ الحس ؛ فإذا بالإنسان فى تجل عظيم مشرق !!! قوة ربانية تملك أسرار الكون ؛ كما تملك معارج الصعود ، إلى حياة النور والخلود ، وتملك فوق هذا وذاك القدرة على تحقيق رسالة الإنسان الكامل ، خليفة الله الذى اصطفى منه كليمه ، وخليله ، وحبيبه .

وفى خلال هـذه الدعوة الروحية الربانية لا يفنى الحلاج عن دنياه كما فنى غيره من الصوفية ، ولم تذهله الإشراقات والمعارج والمحبة الربانية عن حقيقة الحياة الأرضية ، بل هو يقرع سمع الدنيا بدعوته الإصلاحية

ضد المفسدين فى الأرض من الملوك والأمراء ، ومن يمشى فى مواكبهم من محترفى الدين والدنيا ، فيطالب بخلافة مؤمنة ، مهتدية تحمل الناس على الصراط المستقيم .

وحكومة قرآنية ، تشعر بواجبها حيال الله ، شعورها بواجبها حيال الإنسان . وضـــد المفسدين فى الروح والفكر والقلب من علماء الكلام والمنطق والتوحيـد ، ومحترفى الجدل الدينى ، والحوار اللفظى ، الذين مزقوا دينهم شيعاً ، وأحالوه عوجا ، بعد أن كان شرعة محكمة ، لا تعرف جدلا ولا حواراً ، وإنما تعرف عملا وإيماناً .

وتمتزج شخصية الحلاج بجوهر رسالته ، فيؤثر كلاهما فى الآخر ، تأثيراً هو سر ما يضطرب فيه الناس من أمره ، وما يتجادلون حيـال سيرته وحقيقة دعوته .

كان الحلاج متوهج النفس ، مشتعل الحس ، جياش القلب ، ثائر الوجدان ، رهيف العاطفة ، يملك قوى خارقة ، من المغناطيسية الروحية التى تؤثر فى كل شىء يتصل به ، أو يدنو منه .

وكان فوق هـــذا واسع الخيال ، ساحر البيان ، رائع التصوير ، صادق الشعور ، أخلاه الزهد ، وحلاه النسك ، وجلاه الحب ، أكسبته طاعاته ومجاهداته روحاً مشرقاً مشعاً متودداً عطوفاً تتدفق منـه تيارات ساحرة محببة ، تدنيه من كل قلب ، وتمزجه بكل عاطفة .

يقول المستشرق « نيكلسون » : امتاز الحلاج بأنه عاش فى صوفيته تماماً ، عاش فى كل لفظ قاله ، وفى كل خاطر مر به ، حتى لقب بمسيح الإسلام . . . ويقول العلامة الفرنسى « ماسنيون » إنه حى ما قال ،

وقال ما حى ، وعند ما قارن بين محى الدين والحلاج قال : « أنا أعتقد أن ابن عربي معرفته أكبر من روحه ، وأن روح الحلاج أكبر من معرفته » .

كان الحلاج روحاً عظيماً ، بل لعله كان أكبر روح فى عالم التصوف . يقول على بن أنجب الساعي : « لقد بلغ من صفاء روحه أنه كان يستشف الغيب من ستر رقيق ، ولقد عزيت إليه نبوءات صادقة ، استرعت أنظار الدنيا » .

وتلك الصفات التى اتسم بها الحلاج وطبعت تاريخه وصاغت دعوته ، صفات فيها إغراء ، وفيها استهواء ، حتى لقد فتن بسحر الحلاج الروحى قوم ملأوا الدنيا حوله بالأساطير الملونة المبدعة ، ودقوا طبول الدعوة العالية لخوارقه المذهلة ، حتى جعلوه عليماً بالغيب ؛ قادراً على إحياء الموتى ، مسخراً لعناصر الطبيعة وجواهرها . . . وهى صفات أيضاً تترك حولها حقداً غليظاً ، وحسداً مسموماً ، وجحيماً مشتعلا بالبغضاء ؛ فتصدى للحلاج قوم جمعوا كل ما فى الدنيا من فجور وفسوق وإلحاد ومروق ، وقذفوا به وجهه ، وسودوا تاريخه ؛ إرضاء لشهوات صدورهم ، وبغضاء نفوسهم .

وبتلك الحالة ، وعلى قرع تلك الطبول دخل الحلاج بغداد ، وكانت بغداد فى عصره هى الدنيا كما يقول رجال التاريخ !! كان يحمل إليها خراج الأرض ، فتنبض جنباتها بالترف ، وما يدفع إليه الترف من شهوات وفجور !! وكان يلتقى فيها تراث الفكر العالمى بمواريث الحضارة الإسلامية ، فتموج آفاقها بكل لون من ألوان الفكر والمعرفة .

كان فيها الماديون على اختلاف مناهجهم ومللهم ، من الفلاسفة العقليين ، إلى المتمردين الملحدين ، وكان فيها الروحانيون على اختلاف أذواقهم من

العباد المتصوفين ، إلى المنجمين والمتألهين ، والمتصلين بالأرواح والشياطين .

وتحولت مساجد بغداد ومدارسها وندواتها إلى ساحات للحرب الفكرية ، بين فرق وألوان ومذاهب لا حصر لها . . . وإلى ساحة بغداد ، بل إلى ساحات الصراع المشبوب الأوار دلف الحـــلاج ، تحيط به حاشيته ، وتسبقه دعوته !! . واهتزت عمائم العلماء فى أروقتهم الفكرية ، وتطلعت حلقات الصوفيـة وأرهفت سمعها ، وترددت همسات فى قصر الخلافة ، وتخاطفت الجماهير الأحاديث الملونة عن الرجل المبارك ، صانع المعجزة والكرامة !! .

ومن ثم رأينا التـاريخ يحدثنا عن شيوخ كبار من البيئات الصوفية والفقهية ، وعن أئمة من أساتذة الكلام والتوحيد والفلسفة ، وهم يسعون إلى الحلاج ويلتمسون لقاءه والتحدث إليه !! وفى شهواتهم جدل عنيف . وفى عقولهم تحد غليظ ، وفى قلوبهم تلهف حار ، يحاول أن يتعمق فهم رسالة الداعية الذى تحيط به الرعود والبروق .

وتعددت الاجتماعات ، وتوالت الندوات ، وطال الجـدل والحوار ، والتهبت الكلمات ، واختصمت العقول وتفرقت القلوب ، وأصبحت الخصومة سافرة ؛ فقد جاء الحلاج إلى بغـداد يحمل منهجاً ورسالة ، ويندفع فى عنف إلى هدف وغاية .

ولم تكن البيئات العلمية فى بغداد على استعداد عقلى لأن تسلم للحلاج بمنهجه الصوفى ، بنسكه ومواجيده وأذواقه ، ولم تكن المجتمعات الصوفية فى بغداد على استعداد نفسى يؤهلها لأن تسهم مع الحـــلاج فى دعوته الإصلاحية ، وأهدافه الثورية .

الحلاج فى قصر الخليفة :

ثم أطلقت حرية الحلاج كاملة ، فعاد إلى منهجه ورسالته ، يقول ابنه أحمد كما يروى صاحب تاريخ بغداد : « إن والده وقع له عند الناس قبول عظيم ، حتى حسده جميع من فى وقته .

ثم بنى داراً ببغداد واتخــذ له عقاراً ، ودعا الناس إلى فكرته فأجابه الخلق .

وخرج عليه محمد بن داود الظاهرى ، وجماعة من أهل العلم وقبحوا صورته .

ووقع بينــه وبين الوزير ، على بن عيسى ، عداوة من أجل نصر القشورى ، ووقع بينه وبين الشبلى وغيره من مشايخ الصوفية ، واختلفت الألسن فى أمره[1] » .

وكلمة أحمــد بن الحلاج تصور لنا تلك الحقبة من حياة الحلاج تصويراً دقيقاً .

لقد واصل دعوته بتلك الحمية الثائرة التى أثرت عنه ، فأجابه الخلق ، كما ثارت حوله الخصومات والعداوات من جديد .

فخاصمه أول ما خاصمه ابن داود الظاهرى ، الفقيه الجامد المتعصب ومن

---

(١) تاريخ بغداد ح ٨ ص ١١٣

يلوذ به من الفقهاء خصوم الحيـــاة الروحية بكافة صورها وألو وأخذوا ينشرون الشائعات حول الحلاج وعقيدته ودعوته .

ومن الناحية السياسية ، خاصمه الوزير على بن عيسى ، خصومة سياسية ، من أجل نصر القشورى حاجب الخليفة ، وخصمه السياسى .

وفجأة حدث تحول بعيد المدى فى حياة الحلاج ودعوته ، بل بعيـد المدى فى تاريخه ومأساته .

يقول البغدادى[1] « إن علة عرضت للمقتدر بالله فى جوفه ، ووقف نصر القشورى على خبرها ، فحـــدث الخليفة عن الحلاج ووصفه بأنه الرجل الصالح ، واستأذنه فى إدخاله إليه فأذن له .

وجاء الحلاج فوضع يده على الموضع الذى كانت العلة فيـه ، وقرأ عليه فاتفق أن زالت العلة .

ثم يقول : « ولحق والدة المقتدر بالله ، مثل تلك العلة وفعل بهـا ذلك فزال ما وجدته ، فقام للحلاج بذلك سوق فى الدار ، وعند والدة المقتدر والخدم والحاشية » .

ويقول عريب القرطبي فى كتابه ـــ صلة تاريخ الطبرى ـــ « أحيا الحلاج ببغاء ولى العهد الراضى محمد بن جعفر المقتدر فأحدث ذلك دوياً فى القصر وفى بغداد » .

ويحدثنا صاحب تاريخ بغداد حديثاً عجباً عن الحلاج الذى أقام فى

---

(١) تاريخ بغداد ح ٨ ص ١٢٤

قصر الخليفة ، بأمر الخليفة ، وكيف غدا صاحب الكلمة الأولى فى القصر ، ثم يقول :

« وكانت بنت السمرى صاحب الحلاج قد أدخلت إليه ، وأقامت عنده فى دار السلطان » .

ثم يذكر فى موضع آخر ، أن ابنة الحلاج قد أقامت معه أيضاً فى دار الخليفة[1] .

أى إن الحلاج قد انتقل بأسرته وخدمه ومعارفه إلى دار الخلافة .

أصبح الحلاج سيداً مطاعاً مرهوباً ، عال المكانة ، مسموع الصوت ، فى قصر الخليفة .

وغدت والدة الخليفة المقتدر ، السيدة — شغب — بسلطانها وجلالها ونفوذها ، من أخلص تلاميذ الحلاج المؤمنين به ، المدافعين عنه .

ومشى كثير من الوزراء والقواد والأمراء فى موكبه ، وحفوا به فى مجالسه ، واعتنقوا منهجه ، إما عن اقتناع به ، وإما افتتاناً بشخصيته الساحرة ، وإما تزلفاً وتقرباً لرجل ، أصبحت الأسرة الحاكمة ترعاه وتجله ، وتؤمن به وتقدره .

وامتلأ قصر الخليفة الكبير ، بالحديث عن كراماته وآياته ، وما تصنع يداه من عجائب وغرائب ، تكاد ترتفع فوق الكرامات والآيات .

وأسرف الناس كعادتهم فى هذا الحديث ، ولونوه ووشوه ، وأضافوا

---

(١) تاريخ بغداد ح ٨ ص ١٢٥

إليه وزادوا فيه ، حتى غدا الحلاج أكثر من أسطورة ، وأكبر من ولى ، فى أفق بغداد ، وسماء العراق .

وملأت الهمسات الملونة ، أندية بغداد ومساجدها ، وفقد خصوم الحلاج أعصابهم ، فقد رأوا غريمهم ، يرتفع شاهقاً فوق هاماتهم ، فراحوا يملأون الدنيا صياحاً غاضباً مجنوناً ، حول الحـــلاج ، الدعى الساحر الدجال حيناً ، وحيناً تتناول الصيحات المرعدة ، عقيدته الإيمانية ، فترميه وتصفه ، بالكفر والفسوق ، والاتحاد والحلول ! !

والحلاج فى آفاقه بعيداً بعيداً عن هـذا الدوى ، لقد ملكت عليه رسالته الإصلاحية أقطار تفكيره ، وملك عليه حبه لربه ، وجدانه وقلبه ، فراح يجاهد فى الميدانين ، بما أثر عنه من حماس ملتهب ، وبما عرف به من عزمات لا تلين .

ولكن الذى كان يمزق قلب الحلاج حقاً ، ويملأه بالأسى المرير هو موقف أحبابه وأساتذته وتلاميذه من الصوفية ، من أبناء مدرسة الجنيد ، لقد حاربوه فى رسالته ، وبارزوه العداوة فى منهجه ، وسلقوه بألسنة حداد فى حبه وإيمانه .

وهذا الموقف العدائى من الإمام الجنيد ومدرسته ، قد أرقه وأهمه ، وحرق قلبه ، ونرى أثر هذا الموقف فى الكلمات الباكية الحزينة ، التى أخذت تترى على لسان الحلاج ، فى مواجيده وابتهالاته .

لقد أخذت تتسلل إلى قلبه شيئاً فشيئاً ، فكرة الاستشهاد فى سبيل حبه ، وفى سبيل عقيدته .

لقد آمن من قبل بأن الوجد والعذاب فى الحب ، هما معراجه إلى

الوصول والقرب ، واليوم آخـــذ يؤمن بأن الإستشهاد هو طريقه إلى النصر ، النصر الشامخ المتلألأ لفكرته ومنهجه .

إن استشهاده فى سبيلهما ، لهو صورة إيمانه ، وآية صدقه ، وصراط قربه ، وعلامة قبوله عند ربه .

بل لقد راح فى نشوة روحية عالية ، يتنبأ بمصرعه ، ويرى مشاهد هذا المصرع ، جلية مبينة .

قال إبراهيم بن فاتك[1] ، دخلت يوماً على الحلاج فى بيت له ، على غفلة منه ، فرأيته قائماً على هامة رأسه ، وهو يقول :

يا من لازمنى فى خلدى قرباً ، وباعدنى بعد القدم من الحدث غيبا ، تتجلى علىّ ، حتى ظننتك الكل ، وتسلب عنى حتى أشهد بنفيك ، فلا بعدك يبقى ، ولا قربك ينفع ولا حربك يغنى ، ولا سلمك يؤمن !؟

فلما أحس بى ، قعـــد مستوياً وقال : ادخل ولا عليك ، فدخلت وجلست بين يديه ، فإذا عيناه كشعلتى نار ، ثم قال : يا بنى أن بعض الناس يشهدون على بالكفر ، وبعضهم يشهدون لى بالولاية !؟.

فقلت : يا شيخ : ولم ذلك ؟ فقال : لأن الذين يشهدون على بالكفر تعصباً لدينهم ، ومن تعصب لدينه ، أحب إلى الله ممن أحسن الظن بأحد ثم قال لى :

وكيف أنت يا إبراهيم حين ترانى ، وقد صلبت وقتلت وأحرقت ، وذلك أسعد يوم من أيام عمرى جميعه ! ! !

---

(١) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ١٣

ثم قال لى : لا تجلس واخرج فى أمان الله » .

ويقول أحمد بن فاتك[1] : « كنا مع الحلاج ، وكان يوم النيروز ، فسمعنا صوت البوق ، فقال الحلاج :

أى شيء هذا ؟ فقلت : يوم النيروز ، فتأوه وقال : متى نتورز ؟ فقلت : متى تعنى ؟ قال : يوم أصلب ؟ ؟

فلما كان يوم صلبه بعد ثلاث عشرة سنة ، نظر إلى من رأس الجذع وقال : يا أحمد : نورزنا : فقلت : أيها الشيخ : هل أتحفت ؟ قال : بلى ، أتحفت بالكشف واليقين ، وأنا مما أتحفت به خجل ، غير أنى تعجلت الفرح » .

ويقول أحمد بن فارس[2] : « رأيت الحلاج فى سوق القطيفة قائماً على باب مسجد المنصور ، وهو يقول :

أيها الناس ، إذا استولى الحق على قلب أخلاه عن غيره ، وإذا لازم أحداً أفناه عمن سواه ، وإذا أحب عبداً حث عباده بالعدوان عليه حتى يتقرب العبد مقبلا عليه ، فكيف لى ولم أجد من الله شمة ، ولا قرباً منه لمحة ، وقد ظل الناس يعادوننى .

ثم بكى حتى أخذ أهل السوق فى البكاء » .

ويقول على بن أنجب الساعى : « صاح الحلاج فى جامع منصور : أيها الناس اعلموا أن الله تعالى أباح لكم دمى فاقتلونى اقتلونى تؤجروا

---

(١) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ٢٧

(٢) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ٣١

واسترحْ ، ليس فى الدنيا للسلمين شغل أهم من قتلى ، وتكونوا أنتم مجاهدين ، وأنا شهيد[1] » .

ولم يهنأ الحلاج طويلا بمكانته فى القصر ، ولم تتحقق له الآمال الإصلاحية العريضة ، التى راودته وهو يلج قصر الخليفة ، لقد بدأت الدسائس والمؤامرات تحيط به وتواثبه ، وتضيق حوله النطاق وتطارده ! !

لقد كان وجوده فى قصر الخليفة ، أمراً مخالفاً لطبيعة الحياة ، ولطبيعة المعركة التى يقودها .

فهو بإيمانه ورسالته ، يختلف اختلافاً جذرياً عن سكان القصور ، وهو بخلقه ونسكه ومبادئه ، يختلف اختلافاً منهجياً عن أخلاق الطبقة الأرستقراطية الحاكمة .

وكان الاصطدام حتما مقضياً بين الحلاج وبين الحاشية ، لقد رأى بعض الوزراء والقواد والأمراء ، أن مكانتهم قد تزلزلت ، ورأى المستغلون والمنتفعون والمرتشون ، وأرباب النزوات والأهواء والشهوات ، الذين هيمنوا على الخليفة فى الماضى ، أن رأس مالهم الأكبر قد طار من أيديهم .

وانضم إلى هؤلاء وهؤلاء ، السياسيون المحترفون من خصوم السيدة (شغب) أم الخليفة ، وخصوم نصر القشورى الحاجب ، وهما أكبر أنصار الحلاج ، وأخلص تلاميذه .

وفى رجال القصر براعة فى الدس والنفاق ، وكفاءة فى التلوين والتآمر وهم تاريخيا أقدر الناس على هذا الضرب من الحياة ، وأبرعهم فيه .

(١) أخبار الحلاج طبع باريس رقم ٥٠

يقول المستشرق — نيكلسون — « لقد ضاق كبار رجال الدولة بنفوذ الحلاج وصيحاته الشعبية الحارة ، التى تهـــدد بثورة تطيح بهم وبنفوذهم » .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية[1] : « وكانت رعاية (شغب) أم المقتدر ، والحاجب نصر ، للحلاج سببا فى أن عاداه الوزير حامد ، الذى سيقود المعركة يوم محاكمته » .

وابتدأت الحاشية تهمس فى براعة قادرة مدربة فى أذن الخليفة ، بأن الحلاج يعد العدة لضربته الكبرى ، الضربة التى ستطيح بالخليفة ، ليتولى هو الأمر من بعده !!؟

أليس هو صاحب نظرية القطب الزعيم الحاكم ؟ أليس هو المنادى بحكومة الأقطاب والأولياء ، التى يحبها الله ويرضى عنها ؟

أليس يجمع حوله الكتاب والشعراء والصوفية ورجال الفكر ، ومن وراء هؤلاء جميعا جماهير بغداد ، ثم أليس الحلاج هو الولى الأكبر ، والمنقذ الأعظم عند هذه الجماهير !!؟

وزاد الهمس فى أذن الخليفة ، وزادت الاتهامات وتضخمت ، حتى أرعبت الخليفة ، وأنسته نفسه ، وأنسته صداقته للحلاج ، واستضافته له .

وابتدأ الخليفة يضيق بالحلاج ، ويعطى له وجها غير وجهه الأول ، وابتدأ خصوم الحلاج فى القصر يوسعون نطاق مؤامراتهم ، ويمدون حبالهم إلى خارج القصر ، ليشركوا معهم الخصوم التاريخيين للحلاج .

---

(١) مجلد ٨ ج ١ ص ١٧

واستدعى إلى القصر ، المهرة المدربون على الهمسات والشائعات ولكن مكانة الحلاج الشعبية كانت دائماً ، ترهب خصومه ، وتنال من إندفاعهم ، إن له لقداسة وسحراً لا يقاومان بين العامة .

ومن هنا ابتدأ التفكير فى تحطيم هذه الهالة الشعبية ، وتمزيق هذه القداسة الدينية .

وفكر رجال القصر وقدروا ، ثم فكروا وقدروا ، فاهتدوا إلى سلاح تاريخى رهيب ، جرب فأثبت صلاحيته وإيجابيته .

يجب أن يحارب الحلاج باسم الدين وبسلاحه ، لقـــد شاد مكانته السابقة لدى الجماهير باسم الدين والقداسة الروحية ، فيجب إذن أن يحطم باسم الدين ، وباسم الدفاع عن القداسة والمقدسات الروحية !؟.

ومن ثم بدأت حملة من أكبر حمـــلات التزييف فى التاريخ ، حملة انقلبت إلى عاصفة لا تزال ريحها تدوى عبر القرون ، تتهم الحلاج بالمروق والإلحاد ، والحلول والاتحاد ، وغير هذا وذاك من المسميات والنعوت !!؟

وأخذ سيل من الرسائل والكتب يتدفق من الأقلام المأجورة لمهاجمة الحلاج ! ! وابتدأ الدساسون يحرفون كلمه عن مواضعه ، وينسبون إليه ما لم يقله .

بل ابتدؤا يجمعون ويدربون الشهود الزور ، الذين سيتقولون الأفك ، ويشهدون الزور على الحلاج يوم محاكمته .

يقول ماسنيون : « وسهم فى المعركة كثير من رجال الدين ، حتى المعتزلة شاركوا فيها حسداً للحلاج ، فروجوا فى القصر رداً على كرامات

الحلاج ، رسالة — للأوارجى — تصف شعبذة الحلاج وحيله[1] » .

ويقول نيكلسون : « لقد اشترك فى المعركة ضد الحلاج مزيج عجيب من المرتشين والقوادين والزنادقة ومستغلى النفوذ » .

ثم أخذت آفاق السياسة العامة للعراق تضطرب ، وأخـذت أحزابه تتصارع وتتقاتل ، وعلى قمة هذا الصراع ، بدأت محاكمة الحلاج ومأساته .

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام .

محاكمات الحلاج

رأى الحلاج أن دعوته قد تعرضت للخطر ، وأن منهجه الإصلاحى أصبح فى مهب العاصفة ، وأن الساعة الحاسمة تقترب من القمة .

لقد تغير عليه قلب الخليفة ، وتجرأ خصومه فى القصر وخارجه ، وأعلنوها بغضاء سافرة ، وبدأت نذر العاصفة تطرق عليه الأبواب .

كما أدرك فى جلاء مبين ، أن أساليبه السلمية التى استهدف بها تحقيق رسالته ، عن طريق القصر وصداقات القصر ، أصبحت لا تحقق هدفاً ، ولا تملك أملا .

فأخذ يحرك أتباعه من الوزراء وقادة الجيش ، ليتخذوا موقفاً إيجابياً فى مقاومة فساد الحكم وإنحرافه عن رسالة الإيمان والدين .

كما أخذت رسائله تتوالى على أنصاره من العلماء والأدباء ، يعـــدهم ويعبئهم للمعركة السافرة ، وعادت إتصالاته بالجماهير تتسع وتقوى ، يحرك وجدانهم ، ويثير مشاعرهم ، ويلهب فيهم روح المقاومة ضد ما يتعرضون له من إستغلال ، وما يلقون من هوان .

يقول المستشرق ماسنيون[1] : « ولقد قامت فى ذلك الحين بين العلماء رغبة عامة فى إصلاح الأداة الإدارية ، وطالبوا بإقامة خلافة إسلامية حقاً ،

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٧١

ووزارة تحكم بالعدل بين الناس ، خصوصاً فى مسائل الخراج والضرائب — ضد مفاسد عمال الخراج الشيعة من خصوم الحكم الوراثى — وخلافة شاعرة بمسئوليات وظيفتها أمام الله عما يحمل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم — من صلاة وحج وصيام — وكان الأمل معقوداً على الحلاج فى العمل بهذا السبيل ، فى الوقت الذى توقع فيـــه الحلاج ، قرب مصادرة حريته من جانب أعدائه وأصدقائه » .

ودخل الحلاج المعركة ، وحمل عبئها ومسئوليتها ، وكانت طلقته الأولى فى القمة ، فى مجلس وزراء الخليفة .

وابتدأ الصراع بين الوزراء الحلاجيين ، وخصومهم من الوزراء ، صراعا سافراً مريراً .

واستطاع أنصار الحلاج فى الوزارة ، أن يصدروا أول بيان تاريخى منهجى فى العالم الإسلامى ، لميزانية الدولة الإسلاميـــة ، على أسس إشتراكية ، هـذا البيان الذى يقول عنه المستشرق — ماسنيون — : « إنه صار مشهوراً بحق[1] » .

واستطاع هـذا البيان ، أن يعيد تنظيم سياسة الدولة المالية ، وأن يخفف من قسوة الضرائب ، وأن يتجه بفائض المال إلى الخدمات العامة ، بدلا من إنفاقه على الخليفة وحاشيته ! !

وغضب الوزير حامد بن العباسى خصم الحلاج الأكبر ، فقام بحركة مضادة فأغرى الخليفة باحتكار المخزون من القمح والمضاربة فيه ! !

---

(٢) شخصيات قلقة فى الإسلام ص ٧٥

يقول ماسنيون : « [1] فأجاب الوزير ابن عيسى صديق الحلاج على هذا الإجراء ، بإثاره فتنة شعبية ، وفيها أطلق نصر القشورى حبل العمل للحنابلة ــ أصدقاء الحلاج ــ فقامت نقابات العمال فى بغداد والبصرة والكوفة والموصل ، وهاجمت المحتكرين والمخازن وفتحت السجون » .

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام ص ٧٥

المحاكمة الأولى

واهتز عرش الخلافة ، واهتزت أرائك الوزراء غـــير الحلاجيين ، فأدرك الوزير حامد أن الخطر أصبح من الضخامة ، بحيث لا يقاوم إلا بالإقدام على مخاطرة حاسمة ... هى القبض على الحـــلاج نفسه ومحاكمته ، وهو أمر لا يستطيعـه إلا الخليفة ، ولـكن الخليفة جبن وتردد ، رغم إلحاح الوزير عليه ، وتبصيره بالخطر المحدق به .

فلجأ حامد إلى السلاح الدينى الشرعى ، فاتصل بأحـد أعضاء محكمة القضاء الـكبرى ببغـــداد ، وهو الفقيه الظاهرى محمد بن داود ، وكان شاعراً هلوكاً يبغض الحلاج ويمقت التصوف ، فأغراه بالمـال ، ومناه بالآمال ، وحرضه باسم الخلافة والخليفة .

واستغل محمد بن داود مركزه الشرعى ، فرفع أمر الحلاج إلى المحكمة العليا طالباً محاكمته ، والحكم بقتله ، بدعوى الشعوذة وإدعاء الألوهية !!؟

وجند الوزير حامد الشهود ليوم المحاكمة ، فأعد رجلا من غمـار الصوفية ، لقنه أن يقول : إنه سمع الحلاج يتحدث فى درســـه الصوفى بمسجد المنصور قائلا : أنا الحق !!؟

وجاء برجل آخر من العامة ليشهد بأنه من أتباع الحلاج ، وبأن الحلاج إله ؟ وأنه يحيي الموتى ؟

وحضر الحلاج المحاكمة فى دار القضاء العالى ، وواجـــه الشهود ، يقول المؤرخ ابن كثير : «[1]وأنكر الحلاج ما نسب إليه ، وقال : أعوذ بالله أن أدعى الربوبية ، أو النبوة ، وإنما أنا رجل أعبد الله ، وأكثر له الصوم والصلاة وفعل الخير ، ولا أعرف غير ذلك ، وجعل لا يزيد على الشهادتين والتوحيـد ، ويكثر أن يقول : سبحانك لا إله إلا أنت ، عملت سوءاً وظلمت نفسى ، فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

وهنا انتصر للحلاج القاضى الشافعى ، ابن سُريج قائلا : « إن مثل هذا لا يدخل فى القضاء ، والأدلة غير ثابتة ، والدليل لا يوجد » .

وبهذا الاعتراض فشلت المحاكمة ، وضاعت المؤامرة ، ولكن الوزير حامد ، أسرع فأصدر أمراً بتشكيل هيئة قضـاء أخرى برياسة القاضى أبو عمر محمد بن يوسف ، وعضوية القاضى أبو جعفر بن البهلول وجماعة من الفقهاء .

وأعيد الإتهام وجاؤا بالحلاج وتوالى الإتهام : هل أنت إله !؟ هل تحى الموتى !؟ هل تخدمك الجن !؟ هل تصنـــع ما تحب عن طريق المعجزات !؟ كما يقول الشهود .

وأنكر الحلاج ما نسب إليه بشـدة ، وسخر من شهوده بقوة ، وقال : أنا عبد الله ، أومن به وبرسله ، وأدعو إلى الحق ، وأنشد الخير للسلمين ، ولا أقر الظلم ، ولا أعرف هؤلاء الشهود ، ولا أقول غير هذا وأعوذ بالله من الدعوى » .

---

(١) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٤٠

وتعالت صيحات الجماهير الغاضبة خارج دار القضاء ، ووجد القضاة أنفسهم بين شق الرحى .

فعادوا إلى الوزير حامد ليبلغوه بأنهم لم يجدوا ما يوجب قتل الحلاج ، ولا عقابه ، وأنه لا يجوز قبول إدعاء إلا بدليل أو إقرار ! ؟

وفشلت القضية من جديد ، وثار حامد وأسرع إلى الخليفة ينشد تأييده ، فقد زادت هذه المحاكات من مكانة الحلاج ونفوذه .

ولكن الخليفة كان أكثر حرصاً من وزيره ، أو أكثر جبناً وخوفاً ، وكان دائماً يتردد فى حمل مسئولية دم الحلاج ، فأمر حامد بأن يسلمه إلى على بن عيسى عالم بغداد وخصم الحلاج ليناظره ، عسى أن تفلت من فم الحلاج كلمة فيؤخذ بها ! ؟ .

وعقد مجلس المناظرة ، وحشـــد للمجلس خصوم الحلاج من كل لون ونحلة .

يقول الخطيب البغدادى فى تاريخه : « فلما حضر الحلاج مجلس المناظرة ، خاطبه على بن عيسى خطاباً فيه غلظة ، فقال له الحلاج : « قف حيث انتهيت ، ولا تزد عليـه شيئاً ، وتأدب وإلا قلبت عليك الأرض ، فتهيب على بن عيسى من مناظرته ، وطلب من الخليفة أن يعفيه من مناظرته فأعفاه[1] » .

وطارت شهرة الحلاج ، وصفقت بغداد إعجاباً ببطلها ووليها ، وأسرع الوزير حامد إلى الخليفة يناشده العون ، ويطلب إبقاءاً على ماء وجهه ،

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٤

وحرصاً على مكانة الخليفة ، أن يصدر أمره السامى بسجن الحلاج !!
أو على الأقل بتحديد إقامته ، مع سجن الخطرين من تلامذته ، وإبقاء القضية معلقة ، ليبقى الاتهام دائماً محلقاً فوق الحلاج وأنصاره !!

واستجاب الخليفة ، وقُبض على بعض أنصار الحلاج ، وأخذ الحلاج نفسه يتنقل بين السجن حيناً ، وبين مصادرة حريته وتحديد إقامته أحيانا ، طوال ثمانية أعوام كاملة ، وكان سجنه بدار الخلافة ، وكان تحديد إقامته بمنزل صديقه وتلميذه نصر القشورى حاجب الخليفة ، لقد استهدفت الخلافة بهذا الحكم العجيب ، أن يكون الحلاج تحت سمعها ونص[illegible] لتأمن وثبته ، وتتقى ثورته ، وتحد من إتصالاته وتنقلاته .

ومن ثم بدأت مرحلة حاسمة ، من أخطر مراحل حياة
وأجلّها ، مرحلة خصبة ، أشد ما تكون الخصوبة ، حية أقوى ما
الحياة .

مرحلة جهاد مرير لتحقيق رسالته فى الإصلاح ، تحت ضغط [illegible]
قاسية مرهقة ، وجهاد أعلى وأشق ، ليبلغ كماله الروحى ، ولتحترق به
فى لهب وجده المقدس ، وحبه الأسمى ، ليظفر بجوهرة الخلود الكبر[illegible]
جوهرة الحياة ، التى ترتبط بالله ، فتقوم به ، وتتلقى عنه ، وت[illegible]
بذكره ، وتظفر بأنسه ، وتنعم بإلهامه وتُفنى إرادتها فى إرادته .
تحلق بمعراج وجدها ، حتى تراه سبحانه بوجدانها ، وتشاهده بقلبه
نوراً ، هو نور السموات والأرض وما بينهما ، وما تحت الثرى : سبح
هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

مرحلة أخذ الحلاج يضع فيها أخلد كتبه وأبقاها ، وفى طليعتها
كتاب — طاسين الأزل — الذى أنقذه من الفناء الذى صبته الخلافة

العباسية على تراثه ، صديقه الوفى ، ابن عطاء ســـنة ٣٠٩ هـ ، فى اللحظات الأخيرة .

كما أخذ يدنو رويداً رويداً ، من هدفه الروحى ، هدف التضحية والإستشهاد ، ليكون جديراً كما يقول : برسالته ، وكفأ لحبه :

وأخذت شخصية الحلاج ونفوذه ، يلعبان دورهما ، فأصبح المكان الذى حدد لإقامتـه بدار نصر القشورى ، مكاناً فسيحاً رحباً ، مزوداً بكل شى .

لقد امتد إليه سحره كما يقول صاحب تاريخ بغداد : « فأصبح بيتاً ناعماً من فيه يؤمن بالحلاج ويحبه ، ويلبى طلباته ، موسعاً عليه ، لمن يدخل عليه[1] » .

سجنه بدار السلطان ، مدرسـة ومنتدى ، يقول ابن كثير :
اع الحلاج وهو بسجنه فى دار السلطان ، أن يستغوى جماعة من سلطان ، ومومه عليهم واستمالهم بضروب من حيله ، حتى صاروا ، ويدفعون عنه ، ويرفهونه ، ويدخلون عليه من شاء[2] » .

لقد اتسعت حياة الحلاج رغم السجن وتحديد الإقامة ، فأصبح مجلس الخليفة ، يعظه وينذره ، ويذهب نهاراً إلى جامع المنصور ، دروسه ، ويشرح منهجه ، وفى الليل يواصل تهجده وتضرعه ، فى ان الحبيب إلى قلبه ، بين القبور ، عند قبر الإمام أحمد بن حنبل .

---

(١) تاريخ بغداد ح ٨ ص ١٢٤

(٢) البداية والنهاية ح ١١

ثم يعود بعد هـذا كله إلى سجنه بدار السلطان حيناً ، وإلى المقر الذى حدد له بدار نصر القشورى أحياناً ، ليواصل مقابلاته وإتصالاته ، بالوزراء والقادة والأمراء ، يحدثهم ويجادلهم فى فنون الحكم والسياسة .

كما يتصل أيضاً ويقابل العلماء والصوفية والأدباء ، يحـدثهم ويعلمهم أسرار الحب ، ومنازل القرب ، ومقامات التصوف .

جاء فى روضة المريدين ، لابن يزد إنيار : « سئل الحلاج وهو فى سجنه عن التصوف فقال :

« طوامس وروامس اللاهوتية ؟ فقال السائل : أفصح فى هذا المعنى ؟ فقال : لا عبارة عنه ؟ فقلت : لم أظهرته ؟ فقال : يعله من يعلمه ، ويجهله من يجهله ؟ فقلت : أسألك بالله إلا فهمتنى ، فأنشأ يقول :

لا تعرض بنا فهذا بنان قد خضبناه بدم العشاق

وسئل عن الصوفى فقال : « من أشار إليه فهو متصوف ، ومن أشار عنه فهو صوفى » .

وقال فى مرة أخرى عن الصوفى : « إنه وحدانى الذات ، لا يقبل أحدا ، ولا يقبله أحد » .

وقال : معنى الخلق العظيم ، ألا يؤثر فيـــه جفاء الخلق ، بعد مطالعة الحق » .

وقال : « إذا استوى الحق على سر عبد ، ملك الأسرار ، فيعاينها ويخبر عنها » .

وقال : « من أسكرته أنوار التوحيد حجب عن عبادة التجريد » .

وقال : « من خاف من شيء سوى الله ، أو رجا سواه أغلق عليه أبواب كل شيء ، وسلط عليه المخافة ، وحجب بسبعين حجاباً ، أيسرها الشك » .

وقال : « لا يجوز لمن يرى غير الله أن يدعي أنه يعرفه[1] » .

وزاره الشبلي في سجنه ، فوجده جالساً يخط في التراب فجلس بين يديه حتى ضجر ، فرفع الحلاج طرفه إلى السماء وقال :

« إلهي لكل حق حقيقة ، ولكل خلق طريقة ، ولكل عهد وثيقة ، ثم قال :

يا شبلي من أخذه مولاه عن نفسه ، ثم أوصله إلى بساط أنسه ، كيف تراه ؟

فقال الشبلي : وكيف ذاك ؟

فقال الحلاج : يأخذه عن نفسه ، ثم يرده على قلبه ، فهو عن نفسه مأخوذ ، وعلى قلبه مردود .

فأخذه عن نفسه تعذيب ، ورده إلى قلبه تقريب ، طوبى لنفس كانت له طائعة ، وشموس الحقيقة في قلوبها طالعة ثم أنشد[2] :

طلعت شمس من أحبك ليلا فاستضاءت فما لها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليـ ـل وشمس القلوب ليس تغيب

---

(١) الكواكب الدرية للمناوي ج ٢ ص ٢٦

(٢) المحاكمات الكبرى .

واستمرت هذه الحياة ثمان سنوات استطاع الحلاج خلالها رغم سجنه ورغم مصادرة حريته ، أن يوجه الأحداث فى بغداد ، ويحرك تاريخها.

لقد استطاع طوال هذه السنوات ، أن يواجه الحرب فى كل ميدان ، وأن يحمى صديقه نصر القشورى ، وأن يبقيه فى القصر وفى الحكم أيضا.

كما استطاع أن يدخل فى الوزارة دائماً ، صديقه ابن عيسى ، وأن يدفع بالقنائيين ، أحبابه وتلاميذه وحزبه ، إلى الصدارة حيناً ، وإلى كراسى الوزارة أحيانا .

كما استطاع الحلاج ، أن يبعد خصمه الأكبر حامد عن الصدارة ، وعن الوزارة ، رغم صلاته الكبرى بالخليفة ، ورغم نفوذه الضخم فى الدوائر الأرستقراطية ، ولدى الشيعة ، وعمال الخراج ، ورجال المال .

وبجانب هذا وذاك ، كان الحزب العسكرى ، يهادن الحلاج ولا يبارزه الخصومة ، بل كان فى أكثر من موقف يصادقه ، ويمد يده إليه .

المحاكمة الكبرى

وفى نهاية عام ٣٠٨ هـ عاد مؤنس التركى ، كبير القواد العسكريين ، إلى بغداد ، بعـــد أن أنقذ دولة العباسيين فى مصر ، من الفاطميين فى المغرب .

ويصور لنا المستشرق — ماسنيون — تلك الحقبة الحاسمة من التاريخ ، وأثرها فى قضية الحلاج وحياته ، تلك الحقبة التى انقلبت فيها السياسة العسكرية العامة فجأة ، فأنجبت مسائل صغيرة من الصراع السياسى ، نتائج خطيرة ، بعيدة المدى فى التاريخ .

يقول ماسنيون : « استفاد حامد من عودة مؤنس كبير القواد إلى بغداد ، كما استفاد من الأحداث نفسها .

فبعد أن أنقذ مؤنس مصر من الفاطميين ، كان عليه أن يحمى إيران ضد تهديد الديلميين ، الذين دخلوا الرى بفضل واليها — الفارسى — أخ صعلوك مساعد مؤنس سابقاً ، وكان دائماً فى حماية نصر وابن عيسى — أصدقاء الحلاج — .

فعرض حامد على مؤنس ضرورة القضاء على أخ صعلوك ، ولما كان هذا أميراً سامانياً ، فلابد من مجانبة الوزير السامانى ، وهو ـ البلعمى ـ وهو شافعى من أنصار الحلاج[1] .

---

(١) يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه — ظهر الإسلام ج ٢ ص ٧٠ — : =

ومثل هــذا القلب فى الإتجاه السياسى ، يقتضى التشديد فى زيادة الضرائب ، ولن يوافق الخليفة على هـذا ، إلا إذا تخلى عن ثقته ، بابن عيسى ، ونصر القشورى .

فلكى يقضى حامد على كليهما ، ويبلغ غرضه ، قرر استئناف النظر فى قضية الحلاج صديقهما .

وبفضل مؤازرة ، كبير القواد مؤنس ، وبفضل رجل آخر هو أبو بكر بن مجاهد ، شيخ الحفاظ ، وله كلمة مسموعة فى بغداد ، ومن خصوم الحلاج الألداء .

بهؤلاء الأنصار الأقوياء ، نجح حامد فى مؤامرته ، واستطاع إقناع الخليفة بمؤازرته[1] .

وصدرت أوامر الخليفة تترى ، وبمقتضى هذه الأوامر ، منع ابن عيسى من النظر فى قضية الحلاج ، ومنع نصر القشورى من حراسته .

ثم منحت كل هذه الاختصاصات إلى حامد ، الخصم الألد الخصام ، الذى عاد إلى الوزارة ليستأنف سياسته المالية القاسية ، وليعيد إلى المسرح محاكمة الحلاج .

ورددت محافل بغداد ، أن الحلاج فى طريقه إلى المحاكمة الفاصلة .

= « وكانت الدولة فى أيامه مقسمة الإدارة بين سلطات ثلاث : فالدواوين والكتابة فى يد الفرس ، والخلافة والقضاء فى يد العرب ، والجندية والعسكرية بيد الترك ، وهذه السلطات الثلاث ، تتعارض وتتآمر ، وكل فرقة تدس لغيرها الدسائس » .

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام

وثارت جماهير بغداد ، وتزعم الثورة ، صـــديق الحلاج الأمين ، ابن عطاء ، كبير علماء الحنابلة وزعيمهم .

يقول ماسنيون : « وهتف الثوار ضـد الوزير حامد بن العباس فى شوارع بغداد ، من أجل الاحتجاج ضد سياسته المالية ، ومن أجل إنقاذ الحلاج معاً » .

وجاءت الفرصة الذهبية لحامد ، فمنح من الخليفة تفويضاً كاملا بقمع الثورة ، وبمحاكمة الحلاج ، والقضاء عليه .

ودبر أمر الحلاج بليل ؛ وصدرت الأوامر حاسمة ، بسجن الحلاج سجناً حقيقياً قاسياً ، وتكبيله بالأغلال والقيود .

يقول السلمى : سمعت عبد الواحد بن على يقول : سمعت فارساً البغدادى يقول : لما حبس الحلاج ، قيد من كعبه إلى ركبته بثلاثة عشر قيداً ، وكان يصلى مع ذلك كل يوم وليلة ألف ركعة[١] » .

وأعد للقضية شهودها ، كما صنعت وثيقة الاتهام فيها وكانت كما يلى :

١ — مراسلاته السرية مع القرامطة ؟

٢ — إعتقاد أتباعه بألوهيته ؟

٣ — قوله أنا الحق . . ؟

يقول ماسنيون[٢] : « ولعل بغداد كانت فى ذلك الحين أكبر عاصمة

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣١

(٢) شخصيات قلقة فى الإسلام ص ٧٥

فى العالم المتمدين .. وهناك جرت المحاكمة ، على منصة مرتفعة ، كما حدث بالنسبة لجان دارك فى قضية الحب الإلهى .

جرت فى الإطار الفخم الذى يمثـــله قصر الخليفة العباسى ، من سنة ٣٠٨ هـ — ٩٢١ م إلى سنة ٣٠٩ هـ — ٩٢٢ م » .

وجىء بالحلاج أمام هذه المنصة الفخمة العالية ، وفى يديه ورجليـه ثلاثة عشر قيداً ، وانتشر الجند فى كل مكان بالسلاح ، وقبض على أنصار الحلاج بالجملة ، وابتدأت حملات متتابعة قاسـية لأرهاب الجماهير فى بغداد .

واحتشد فى ساحة الجلسة خصوم الحلاج جميعاً من كل لون ومذهب .

قتل ابن عطاء !!؟

وبدأت المحاكمة بأعجب حادث فى تاريخ القضاء ، بدأت بإعدام زعيم دينى ، لم تعقد المحكمة لمحاكمته ، ولم يوجه إليه اتهاماً ، ذلك هو زعيم علماء الحنابلة ، أبو العباس بن عطاء .

لقد أراد الوزير حامد ، أن يبث فى ساحة القضاء الخوف وأن يشيع فيها الرعب ، وأنه يمنع كلمة الحق ، بضربة عنيفة ، فيها نذير وإرهاب ووعيد ، وشاء الله سبحانه أن يكون ابن عطاء هو كبش الفداء .

يقول الحافظ الخطيب البغدادى « [1]أنبأنا إسماعيل بن أحمد الحيرى ، أنبأنا أبو عبد الرحمن الشبلى ، قال : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول :

كان الوزير حامد بن العباس ، حين أحضر الحسين بن منصور ، أمره أن يكتب اعتقاده ! فكتب اعتقاده . فعرضه الوزير على الفقهاء ببغداد ، فأنكروا ذلك[2] .

فقيل للوزير : إن أبا العباس بن عطاء يصـــوب قوله ، فأمر أن يعرض ذلك على أبى العباس بن عطاء فعرض عليه فقال :

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٨

(٢) لم يبين لنا كتاب من كتب التاريخ هذا الأعتقاد ؟ ولم يذكر لنا التاريخ من هم هؤلاء الفقهاء ؟ إنه الغموض الهادف الذى فرضه العباسيون على الحلاج وتاريخه .

هذا اعتقاد صحيح ، وأنا أعتقد هذا الإعتقاد ، ومن لا يعتقد هذا فهو بلا اعتقاد .

فأمر الوزير بإحضاره فأحضر ، وأدخل عليـــه ، فجلس فى صدر المجلس ، فغاظ الوزير ذلك .

ثم أخرج ذلك الخط ، فقال : هذا خطك ؟ فقال : نعم ، فقال : تصوب مثل هذا الأعتقاد ؟

فقال : مالك ولهذا ؟ عليك بما نُصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم وقتلهم ، مالك وبكلام هؤلاء السادة .

فقال الوزير : فكيه ؟ فضرب فكاه !! فقال أبوالعباس : اللهم إنك سلطت هذا على عقوبة لدخولى عليه !!

فقال الوزير : خفّهُ يا غلام ، فنزع خفه ، فقال : دماغه ، فما زال يضرب رأسه . حتى سال الدم من منخريه .

ثم قال : الحبس ، فقيـــل يتشوش العامة لذلك ، فحمـــل إلى منزله .

فقال أبوالعباس :

اللهم أقتله أخبث قتلة ، واقطع يديه ورجليه !! فمات أبو العباس بعد ذلك بسبعة أيام .

وقتل الوزير حامد بن العباس ، أفظع قتلة وأوحشها — بعد قتل

الحلاج ـ بعد أن قطعت يداه ورجلاه ، وأحرق داره وكانوا يقولون : أدركته دعوة أبى العباس بن عطاء[1] » .

(١) يقول العلامة ابن كثير فى البداية والنهاية ج ١١ ص ١٤٤ فى ترجمته لابن عطاء ، وهو يتحدث عن عباداته : « وكان أبو العباس يقرأ فى كل يوم ختمة ، فاذا كان شهر رمضان قرأ كل يوم وليلة ثلاث ختمات ، وكان له ختمة يتدبرها ويتدبر معانى القرآن فيها ، فمكث فيها سبعة عشر سنة ، ومات ولم يختمها .

شهود القضية :

وفى هـــذا الجو النفسى الرهيب ، جِىء بالشهود ، وكان الشاهد الأول ، هو — السمرى — وكان فى ماضيه من أتباع الحلاج ثم انشق عليه .

يقول صاحب تاريخ بغداد[1] :

« وأحضر حامد ، السمرى صاحب الحلاج ، وسأله عن أشياء من أمر الحلاج ، وقال له حدثنى بما شاهدته منه ؟

فقال له : إن رأى الوزير أن يعفينى فعل !؟ فأعلمه أنه لا يعفيه ، وعاد فسأله عما شاهده ، فعاود استعفاءه وألح عليه فى السؤال ، فلما تردد القول بينهما قال :

أعلم أنى إن حدثتك كذبتنى ، ولم آمن مكروهاً يلحقنى ، فوعده أن لا يلحقه مكروه ، فقال :

كنت معه بفارس ، فخرجنا نريد — اصطخر — فى زمن شات فلما صرنا فى بعض الطريق ، أعلمته بأنى قد اشتهيت خياراً فقال لى :

فى هذا المكان ! وفى مثل هذا الوقت من الزمان ؟ فقلت : هو شىء عرض لى .

---

(١) تاريخ بغداد ح ٨ ص ١٣٦

ولما كان بعد ساعات ، قال لى : أنت على تلك الشهوة ؟ فقلت : نعم.

قال : وسرنا إلى سفح جبل ثلج ، فأدخل يده فيه ، وأخرج إلى منه خيارة خضراء ودفعها إلى !

فقال له حامد : فأكلتها ؟ قال : نعم ، فقال له : كذبت يا ابن مائة ألف زانية ، فى مائة ألف زانية ، أوجعوا فكيه !!؟ فأسرع الغلمان إليه ، فامتثلوا ما أمرهم به ، وهو يصيح : أليس من هذا خفنا !؟

ثم أمر به فأقيم من المجلس ، وأقبل حامد يتحدث عن قوم من أصحاب النيرنجات ، كانوا يعدون بإخراج التين وما يجرى مجراه من الفواكه ، فإذا حصل ذلك فى يد الإنسان ، وأراد أن يأكله صار بعراً ،

وهكذا ضرب الشاهد وكذب ، كما ضرب الفقيه العالم وكذب من قبل .

وأصبح حامد الغاضب الثائر ، هو الحكمة كلها ، لا يتكلم سواه ، ولا يحكم غيره ، إنه وحده الذى يملك دماء الناس وأعراضهم وكرامتهم ! !

وإذا كان السمرى ، لم يؤد الشهادة كما يجب ، وكما أتفق من قبل ؟

فإن ابنته ألين عريكة ، وقلبها يهفو إلى كل إغراء مادى . . وحامد ملء يديه الآمال والإغراء .

وجىء بابنة السمرى .

يقول — زنجى — أكبر رواة المحاكمة ، وقد حضرها بنفسه وعاش أحداثها .

« [1] وحضرت بنت السمرى ، فسألها حامد عن الحلاج ، فذكرت أن أباها السمرى ، حملها اليه — لتخدمه وهو يسكن دار الخليفة ، وأنها لما دخلت عليه ، وهب لها أشياء كثيرة ، عددت أصنافها ، منها رَيْطة خضراء .

وقال لها : قد زوجتك من ابنى سليمان ، وهو أعز ولدى على ، وهو مقيم بنيسابور .

وليس يخلو أن يقع بين المرأة وزوجها خلاف ، أو تنكر منه حالا من الأحوال ، وقد أوصيته بك ، فتى جرى شيء تنكريه من جهته ، فصومى يومك ، واصعدى آخر النهار إلى السطح وقومى على الرماد ، واجعلى فطرك عليه ، وعلى ملح جريش ، واستقبلينى بوجهك ، واذكرى لى ما أنكرتيه منه ، فإنى أسمع وأرى ؟

قالت وكنت ليلة نائمة فى السطح ، وابنة الحلاج معى فى دارالسلطان ، وهو معنا .

فلما كان فى الليل أحسست به وقد غشينى ، فانتبهت مذعورة منكرة لما كان منه ، فقال :

إنما جئتك لأوقظك للصلاة ، ولما أصبحنا نزلت إلى الدار ، ومعى بنته ونزل هو ، فلما صار على الدرجة ، بحيث يرانا ونراه ، قالت بنته :

اسجدى له ؟ فقلت لها : أويسجد أحد لغير الله ؟ وسمع كلامى لها فقال : نعم إله فى السماء ، وإله فى الأرض .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٤ — ١٣٥

قالت ودعانى اليه ، وأدخل يده فى كمه ، وأخرجها مملوءة مسكاً ، فدفعه إلى وقصل هذا مرات ، ثم قال لى :

اجعلى هذا فى طيبك ، فإن المرأة إذا حصلت عند الرجل احتاجت إلى الطيب .

قالت : ثم دعانى وهو جالس فى بيت البوارى فقال : ارفعى جانب البارية وخذى من تحته ما تريدين ، وأومأ إلى زاوية البيت فجئت اليها ورفعت البارية ، فوجدت الدنانير تحتها مفروشة ملء البيت ، فبهرنى ما رأيت من ذلك » .

قال زنجى : « وأقامت هـــذه المرأة معتقلة فى دار حامد إلى أن قتل الحلاج » .

واستطاع الحلاج فى بساطة ، أن يزيف هـذه الشهادة ، ولم تستطع ابنة السمرى ، أن تقدم دليلا واحداً على صدقها .

وهز القضاة رءوسهم ، رغم تهديد حامد لهم ، وقالوا : لا نصدر حكماً بناء على أقوال امرأة ، لا تملك دليلا ؟

وأخذ الوزير حامد يحضر الحلاج كل يوم إلى المحكمة ، مكبلا بالقيد محاطاً بالجند ،

ويبدأ الجدل والحوار ، ويحاول حامد ، أن يجد فى كلام الحلاج منفذاً أو سقطة كما يقول ابن كثير : فأعجزه ذلك .

وتتابعت الايام ، وتوالت الشهور ، وشاهد يأتى وشاهد يذهب ،

والحلاج كالجبـل الأشم ، تتساقط على أقدامه اتهامات المبغضين ، ويذوب أمام بيانه وإيمانه جدل المجادلين .

بل لقد استطاع الحلاج فى محنته ، أن يكتسب كل يوم أنصاراً أقوياء ، وعلماء أجلاء .

بطولة ابن عفيف :

وقصة محمد بن عفيف مع الحلاج ، تقـــدم لنا صورة مشرقة من انتصارات الحلاج الروحية العجيبة .

فقد أرسله إليه الخليفة فى سجنه ليجادله ، وكان ابن عفيف كما يقول — ماسنيون — : « أشعريا متطرفاً ، وعالماً لا يثبت لجدله أحـــد من الناس » .

يقول ابن عفيف : إنه دخل على الحلاج فرأى نوراً يتلألأ على جبينه ووجد اطمئناناً يشيع الأمن والسلام فى كل شىء يحيط به ، حتى لقد خيل إليه أن غرفة الحلاج فى سجنه ، قطعة من الجنة .

ورأى عالماً على كلامه إشعاع ليس من علم الأرض ، فقبل يد الحلاج ورأسه ، وهتف : لم أر فى حياتى ، عالماً ربانياً سوى هذا الشهيد .

وأبى أن يفارق حجرة السجن ، وطلب أن يبقى معه ليقاسمه ما يلقى ، وعجزت سياط الجلادين عن إقناعه .

يقول ابن كثير : فحمل بالقوة إلى حجرة أخرى ، وعلق من قدميه إلى السقف » .

وانصب على ابن عفيف جانب ضخم من الهول الذى ذاقه الحلاج ، وكان يقول : حسبى أن أشارك عبداً ربانياً فى عذابه : وظل معـه فى سجنه يقاسمه الألم والعذاب ، حتى يوم مصرعه الرهيب .

عجائب الحلاج فى سجنه

وبينما هذه المهزلة الرسمية تجرى، وبينما قلب بغـداد يخفق لها ، وأذن العراق تستمع إليها .

أخذت أحداث أخرى ، تجرى فى سجن الحلاج ، أحداث شقت طريقها إلى قلب بغـداد ، فألهته حتى عن المحاكمة ، ونفذت إلى أذن العراق ، فأطربته وأذهلته ، وطارت باسم الحلاج فى الخافقين :

تلك الأحـداث التى ألقى الناس إليها بأسماعهم ، هى عجائب الحلاج وسحره إن شئت ، وكراماته وآياته إن أحببت ؟ ؟

آيات سجلها التاريخ ، ومن العجيب حقاً ، أنها سجلت بأقلام خصومه لقد أذهلتهم حتى لم يستطيعوا حجبها أو محـــوها من ذاكرة التاريخ ، كما استطاعوا أن يحجبوا وأن يمحوا الكثير ، من سيرة الحلاج وتراثه وأيامه .

يقول أحمد بن فاتك[1] : « لما حبس الحلاج ببغداد كنت معه ، فأول ليلة جاء السجان وقت العتمة ، فقيده ووضع فى عنقه سلسلة ، وأدخله بيتاً ضيقاً .

فقال له الحسن : لم فعلت بى هذا ؟ قال : كذا أمرت ؟ فقال له

---

(١) أخبار الحلاج طبع باريس ص ٩٠

الحلاج : الآن أمنت منى ؟ قال : نعم ، فتحرك الحلاج ، فتناثر الحديد عنه كالعجين ، وأشار بيده إلى الحائط فانفتح فيه باب ، فرأى السجان فضاء واسعاً ، فعجب من ذلك ، ثم مد الشيخ يده وقال :

الآن افعل ما أمرت به ، فأعاده كما فعل أول مرة ، فلما أصبح أخبر السجان الخليفة المقتدر بذلك فتعجب ، وتعجب الناس » .

ويقول محمد بن عفيف[1] : « لما رجعت من مكة ، ودخلت بغداد ، أردت أن ألقى الحسين بن منصور ، وكان محبوساً قد منع الناس عنه ، فاستعنت معارفى وكلموا السجان ، وأدخلنى عليه ، فدخلت السجن والسجان معى ، فرأيت داراً حسنة ، ورأيت فى الدار مجلساً حسناً ، وفرشاً حسناً ، وشاباً قائماً كالخادم فقلت له :

أين الشيخ ؟ فقال : مشغول بشغل ؟ فقلت : ما يفعل الشيخ إذا كان جالساً ها هنا ؟

قال : ترى هذا الباب ، هو إلى حبس اللصوص والعيارين يدخل عليهم ويعظهم فيتوبون ، فقلت : من أين طعامه ؟ فقال : تحضره كل يوم مائدة عليها ألوان الطعام فينظر إليها ساعة ، ثم ينقرها بأصبعه ، فترفع ولا يأكل ، فإذا الحلاج قد خرج إلينا فرأيتــــه حسن الوجه ، لطيف الهيئة ، عليه الهيبة والوقار .

فإذا هو سلم على وقال : من أين الفتى ؟ قلت : من شيراز ، فسألنى عن مشايخها فأخبرته ، وسألنى عن مشايخ بغداد فأخبرته ، فقال :

---

(١) أخبار الحــلاج طبع باريس ص ١٠١ ، ١٠٢ ، وكتابه بداية حال الحلاج ونهايته لابن باكويه ، وسيرة ابن عفيف

قل لأبى العباس احتفظ بتلك الرقاع[1] ثم قال : كيف دخلت ، فأخبرته .. فدخل أمير الجيش يرتعد ، فقال له : مالك ؟ قال : سعى بى إلى أمير المؤمنين بأنى أخذت رشوة ، وخليت أميراً من الأمراء ، وجعلت مكانه رجلا من العامة ، وها أنا ذا أحمل لتضرب عنقى !! فقال :

إمض لا بأس عليك ، فذهب الرجل ، وقام الشيخ إلى صحن الدار ، وجثا على ركبتيه ، ورفع يديه ، وأشار بمسبحته إلى السماء وقال: يا رب ، ثم طأطأ رأسه حتى وضع خده على الأرض وبكى حتى ابتلت الأرض من دموعه ، وصار كالمغشى عليه .

وبينما هو على تلك الحال ، دخل أمير الجيش فقال : عُفى عنى ، قال ابن خفيف : وكان الحلاج جالساً فى طرف الصُّفة ، وفى آخر الصُّفة منشفة ، وكان طول الصُّفة خمسة أذرع ، فمد يده وأخذ المنشفة ، فلا أدرى أطالت يده ، أم جاء المنديل إليه ، فمسح وجهه بها ، فقلت هذا من ذاك » .

ويقول — زنجى — أكبر رواة محاكمة الحلاج ، وصديق الوزير حامد : « [2] كنت يوماً وأبى بين يدى حامد ، ثم نهض من مجلسه وخرجنا إلى دار العامة ، وجلسنا فى رواقها ، وحضر هارون بن عمران الجهبذ ، فجلس بين يدى أبى ولم يحادثه ، فهو فى ذاك إذ جاء غلام حامد الذى كان موكلا بالحلاج ، وأومأ إلى هارون بن عمران ، أن أخرج إليه ، فنهض عن المجلس مسرعاً ، ونحن لا ندرى ما السبب .

---

(١) صحف فيها كلمات للحلاج . ويرى ماسنيون أنها كتابه طاسين الأزل .

(٢) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٧ — ١٣٨

فغاب عنا قليلا ، ثمّ عاد وهو متغير اللون جداً ، فأنكر أبى ما رآه منه ، وسأله عنه فقال :

دعانى الغلام الموكل بالحلاج ، فخرجت إليه ، فأعلمنى أنه دخل إليه ومعه الطبق ، الذى رسم أن يقدمه إليه فى كل يوم ، فوجده ملأ البيت من سقفه إلى أرضه ، وملأ جوانبه ، فهاله ما رأى من ذلك ، ورمى بالطبق من يده ، وخرج من البيت مسرعاً ، وإن الغلام ارتعد وانتفض وحم ! وبقى هارون يتعجب من ذلك .

ويقول الخطيب البغدادى « وبلغ[1] حامداً من بعض أصحاب الحلاج أنه ذكر أنه دخل إليه ، إلى الموضع الذى هو فيه ، وخاطبه بما أراده ، فأنكر ذلك كل الإنكار .

وتقدم بمسألة الحجاب والبوابين ، وقد كان رسم أن لا يدخل اليه أحد . وضرب بعض البوابين ، فحلفوا بالأيمان المغلظة أنهم ما أدخلوا أحداً من أصحاب الحلاج إليه ، ولا اجتاز بهم ، وتقدم بتفقّد السطوح ، وجوانب الحيطان ، فتفقدوا ذلك أجمع ، ولم يوجد له أثر ولا خلل .

فسأل الحلاج عن دخول من دخل إليه فقال : من القدرة نزل ، ومن الموضع الذى نزل إلىّ منه خرج ! ؟ » .

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٩

اتجاهات هادفة

فى قضية الحلاج

رأى حامد أن قضية الحلاج ، قد تحولت إلى مظاهرة سياسية ودينية كبرى ، مظاهرة أصبح بطلها الوحيد ، هو الحلاج .

وأن المحاكمة قد تحولت أو كادت إلى ما يشبه التكريم الرائع لبطل ولى ، جنت الجماهير بحبه وتقديره ، وسبح خيال هذه الجماهير ، يجرى مبهور الأنفاس ، خلف بطولته وكراماته .

وامتد سحر الحلاج إلى أكبر رأس بين الحنابلة — ابن عطاء — وإلى أرفع رأس بين المعتزلة — ابن عفيف — فلم يكتفوا بتأييد الحلاج ، بل قدموا أرواحهم فداء له .

وإذن فيجب أن يحدث انقلاب سريع هادف فى سير القضية ، فلم تعد التهم السابقة ، تكفى لإدانة الحلاج ، وتحطيمه وتشويه مكانته وقداسته .

ودبر الأمر بليل ، ومن ثم قامت حملات بوليسية ضخمة للإرهاب العام ، حملات تفاجىء كل بيت من بيوت أنصار الحلاج وأعوانه ، بدعوى البحث عن كتبه وآثاره .

ودبت حياة جديدة فى القضية ، وتهيأ المسرح للرحلة الحاسمة .

يقول الخطيب البغدادى : « [1]جد حامد فى طلب أصحاب الحلاج ،

---

(١) تاريخ بغداد ح ٨ ص ١٣٥

وأذكى العيون عليهم وفتش منازلهم ، وحصل فى يده منهم ، حيدرة ، والسمرى ، ومحمد بن على القنائى ، والمعروف بأبى المغيث الهاشمى .

واستتر المعروف ، بابن حماد ، وكبس منزله ، وأخذت منه دفاتر كثيرة ، وكذلك من منزل محمد بن على القنائى ، فى ورق صينى وبعضها مكتوب بماء الذهب ، مبطنة بالديباج والحرير ، مجلدة بالأديم الجيد .

ثم يقول : وكان فى الكتب الموجودة عجائب من مكاتباته أصحـــابه النافذين إلى النواحى ، وتوصيتهم بما يدعون الناس إليه وما يأمرهم به ، من نقلهم من حال إلى حال ، ومرتبة إلى مرتبة ، حتى يبلغوا الغاية القصوى ، وأن يخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم ، وعلى استجابتهم وانقيادهم .

وجوابات لقوم كاتبوه بألفاظ مرموزة ، لا يعرفها إلا من كتبها ، ومن كتبت إليه ، ومدارج فيها ما يجرى هذا المجرى .

وفى بعضها صورة فيها اسم الله تعالى مكتوب على تعويج وفى داخل ذلك التعويج مكتوب — علىّ — عليه الســـلام كتابة لا يقف عليها إلا من تأملها » .

وإذن فقد أخذت الأتهامات الجديدة ، تتجه اتجاهاً سياسياً غامضاً .

والغموض هنا عن قصد ، وعن عمد ، حتى يسبح الخيال ما شاء فى الإتهام ، ويوجهه إلى كل هدف وأفق .

فالحلاج فى هذا الأتهام الجديد ، له أصحاب وأتباع ، أنفذهم إلى كل ناحية ، من أنحاء العالم الإسلامى ، ودربهم وزودهم بما يدعـــون الناس إليه !!

والدعوة الحلاجية منظمة تنظيماً سياسياً وروحياً بارعاً ، ومن أدلة هذا التنظيم الروحى ، أن الحلاج يباشر قلوب أتباعه بالتربية والإلهام ، ثم ينقلهم فى الطريق الروحى الصاعد ، من حال إلى أخـــرى ، ومن مرتبة إلى مرتبة ، حتى يبلغوا الغاية القصوى ، من الكمال ، أو من الفناء ، أو من الإتحاد والحلول !!؟

ومن أدلة التنظيم السياسى الهادف ، أن الحلاج قد أمر أتباعه أن يستعملوا الحكمة فى دعوتهم السياسية فيخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم ، وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم .

وخطابات هؤلاء الدعاة مرموزة لا يعرفها إلا من كتبها ، أو من كتبت إليه .

وكلمة على عليه السلام هنا تصلح لاتهام الحلاج بمناصرة الشيعة ، أو بتأييد القرامطة ، أو بالتهمتين معاً .

أما الدليل الحاسم الناطق على هذا الإتهام العريض ، فلا حاجة إليه ، لأن الخطابات قد كتبت بالرمز ، والرمز لا يفهمه ، ولا يفقهه إلا من كتبه ، أو من أرسل إليه ، وهذا أعجب إتهام عرفه التاريخ !!

فإذا استقام هـذا الإتهام العجيب فى نظر حامد وأعوانه ، فليمض الإتهام إلى وجهة أخرى . . إلى النيل من قداسة الحـــلاج الدينية ، ومكانته الروحية .

يقول الخطيب البغـــدادى وهو يواصل الحديث عن القضية : « [1]وحضرت مجلس حامد — الرواية على لسان زنجى وهو أحد شهود

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٦ — ١٣٧

المحاكمة — وقد أُحضر سفط خياذر لطيف ، حمل من دار محمد بن علي القنائي - أكبر ظني - فتقدم بفتحه ففتح ، فإذا فيه قِدَرٌ وقوارير ، فيها شيء يشبه لون الزئبق ، وكِسر خبز جافة ، وكان السمرى حاضراً جالساً بالقرب من أبي ، فعجب أبي من تلك القـــدر ، وتصييرها في سفط مختوم ، ومن تلك القوارير — وعندنا أنها أدهان — ومن كسر الخبز .

وسأل حامد السمرى عن ذلك فدافعه عن الجواب ، واستعفاه منه ، وألح عليه في السؤال ، فعرفه أن تلك القدر رجيع الحلاج !! وأنه يستشفى به ، وأن الذي في القوارير بوله ، فعرف حامد مقاله ، فعجب منه من كان في المجلس !!

واتصل القول في الطعن على الحلاج ... وأقبل أبي يعيد ذكر تلك الكسر ، ويتعجب منها ، ومن احتفاظهم بها ، حتى غاظ السمرى ذلك فقال له :

هو ذا ، أسمع ما تقول ، وأرى تعجبك من هذه الكسر ، وهي بين يديك ، فكل منها ما شئت ، ثم انظر كيف يكون قلبك للحلاج بعد أكلك ما تأكله منها فتهيب أبي أن يأكلها ، وتخوف أن يكون فيها سم .

وأحضر حامد الحلاج ، وسأله عما كان في السفط ، وعن احتفاظ أصحابه برجيعه وبوله !؟ فذكر أنه شيء ما علم به ، ولا عرفه » .

الـكلمة القاتلة ! ؟

وعجزت هذه الإتهامات أيضاً عن تحقيق الغرض منها ، وشعر القضاة رغم التعليمات الصادرة إليهم ، بعجزهم عن إصدار حكم الإدانة القاتل .

فعيون العلماء والفقهاء والصوفية ترقبهم ، وصيحات الجماهير الغاضبة تخترق آذانهم ، وفى أعماق قلوبهم يضج ضميرهم ويتمرد ! !

والوزير حامد وعصبته من وراء هـذا كله ، يمزقهم الغضب المرعد المجنون ، ويقتلهم الحقد الأسود المرير ، وقصر الخليفة ، يرقب المأساة ، وقد تمزق أحزاباً وشيعا .

فالخليفة ومعه كبير قواده ، وجمهرة وزرائه ، يساندون حامد وعصبته ، من وراء ستار ، بقوة وإصرار .

وأم الخليفة ، وحاجبه نصر القشورى ، والوزير بن عيسى ، يساندون الحلاج جهرة ، ويرفعون الصوت عالياً بالدفاع عنه .

وكادت القضية ، أن تحدث إنهيارا فى الحكم العباسى ، وتحفز الحنابلة والصوفية والشيعة وأنصار الحلاج ، للتمرد والإنقضاض ، على الخلافة العاجزة الممزقة .

وصـــدرت الأوامر حاسمة من القصر ، إلى حامد وإلى القضاة ، وانتاب جو المحكمة قلق وتوتر ، وحوم حولها تهديد ووعيد ، وتمشى فى ساحتها ريح عاصف ، يوشك أن يكون برقاً ورعداً .

وانقلب جو المحكمة ، إلى ما يشبه جو محاكم التفتيش التاريخية ، ويواصل الخطيب البغدادى روايته على لسان — زنجى — فيقول :

« [1] وكان يخرج إلى حامد ، فى كل يوم ، دفاتر مما حمل من دور أصحاب الحلاج ، ويجعل بين يديه ، فيدفعها إلى أبى ، ويتقدم إليه بأن يقرأها عليه ، فكان يفعل ذلك دائما .

فقرأ عليه فى بعض الأيام من كتب الحلاج ، والقاضى أبو عمر حاضر ، والقاضى أبو الحسين بن الأشنانى ، كتاباً حكى فيه أن الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنه ، أفرد فى داره بيتاً لا يلحقه شىء من النجاسة ، ولا يدخله أحد ، ومنع من تطرقه .

فإذا حضرت أيام الحج ، طاف حوله طوافه حول البيت الحرام ، فإذا انقضى ذلك ، وقضى من المناسك ما يقضى بمكة مثله ، جمع ثلاثين يتيما وعمل لهم ما يمكنه من الطعام ، وأحضرهم إلى ذلك البيت ، وقدم إليهم ذلك الطعام ، وتولى خدمتهم بنفسه .

فإذا فرغوا من أكلهم ، وغسل أيديهم ، وكسا كل واحد منهم قميصا ، ودفع إليه سبعة دراهم أو ثلاثة — الشك منى — فإذا فعل ذلك قام له مقام الحج !! ؟

فلما قرأ أبى هـــذا الفصل ، التفت أبو عمر القاضى إلى الحلاج ، وقال له : من أين لك هذا ؟ قال : من كتاب الإخلاص للحسن البصرى ؟ فقال له أبو عمر : كذبت يا حلال الدم ... قد سمعنا كتاب الاخلاص للحسن البصرى بمكة ، وليس فيه شىء مما ذكرته ! ؟

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٨

فلما قال أبو عمر يا حلال الدم ، قال له حامد : اكتب بهـــذا فتشاغل أبو عمر بخطاب الحلاج .

فأقبل حامد يطالبه بالكتابة بما قاله ، وهو يدافع ويتشاغل إلى أن مد حامد الدواة من بين يديه إلى أبى عمر ، ودعا بدرج فدفعه إليه ، وألح عليه حامد بالمطالبة بالكتابة إلحاحاً لم يمكنه معه المخالفة ! ! ؟ فكتب بإحلال دمه وكتب بعض من حضر المجلس .

ولما تبين الحلاج الصورة قال : ظهرى حمى ، ودمى حرام ، وما يحل لكم أن تتأولوا على ، واعتقادى الإسلام ، ومذهبي السنة ، وتفضيل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وطلحة والزبير ، وســعد وسعيد ، وعبد الرحمن بن عوف وأبى عبيدة الجراح ، ولى كتب فى السنة موجودة فى الوارقين ، فالله الله فى دمى ! ! ؟

ولم يزل يردد هـــذا القول ، والقوم يكتبون خطوطهم ، إلى أن استكملوا ما احتاجوا إليه ، ونهضوا عن المجلس ، ورد الحلاج إلى موضعه الذى كان فيه .

ورفع حامد ذلك المحضر إلى والدى ، وتقدم إليه ، أن يكتب إلى المقتدر بالله ــ الخليفة ــ بخبر المجلس ، وما جرى فيه ، وينفذ الجواب عنها ، فكتب الرقعتين ، وأنفذ الفتوى إلى المقتدر بالله » .

وبذلك تمت مهزلة دامية ، من أعجب مهازل التاريخ ، بل من أبشع مآسيه ! !

مهزلة اشترك فيها الخليفة ، وكبير قواده مؤنس ، وكبير وزرائه حامد ، ومن ورائهم حشد ضخم ، من المنافقين والمرتشين والمحتكرين ، ومحترفى السياسة المنتفعين ، الذين يسبحون مع التيار المنتصر ! !

اشتركوا جميعاً فى قتل سافر ، وليخنقوا صــوت الحق ، الصوت الرهيب ، الذى ارتفع فى أفقهم السياسى ، ليهدد مكانتهم ونفوذهم واستقلالهم .

مهزلة سياسية لبست ثوب الدين ، وعجز حتى هذا الثوب ، عن أن يستر المهزلة ، فجاء الثوب ممزقاً مهلهلا .

يقول الأسطخرى : ولم يعرف للحسن البصرى ، كتاباً باسم الإخلاص : ومع هذا وضعت الرواية على لسان الحلاج ، اسم هذا الكتاب ، ووضعت على لسان القاضى ، أنه قرأه بمكة !!؟

ثم عجزت الرواية المصنوعة نفسها ، عن أن تلبس الحكم ثوباً شرعياً فالقاضى يقول وهو غاضب ، كلمة لا يقصد معناها ، ولا يريد حقيقتها ، والوزير يتلقف الكلمة . فى إصرار عجيب ، ثم يرغم القاضى إرغاماً عليها ، وعلى توقيع الحكم باسمها .

يقول المستشرق ماسنيون[1] : « هنالك استطاع حامد أن يتآمر مع القاضى المالكى أبى عمر الحماوى ، وهو معروف بتملقه للقائمين بالأمر ، على الحكم الذى سيصدر بإعدام الحلاج وأسبابه ! ؟

وذلك بالإحتجاج بمذهب الحلاج بالإستغناء عن الحج ، ليشبه أمره بأمر القرامطة الثائرين ، الذين أرادوا هدم الكعبة !!؟

ومن عجب أن الحلاج حج ثلاث مرات ، وقد رفض القاضى الحنفى ابن بهلول الموافقة على حكم ابن عمر ، ولكن مساعده ــ الأشنانى ــ قبل مساعدة ، ابن عمر فى هذا الإتجاه .

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٧٧

ولم يحضر الجلسة أحد من الشافعية ، وقد وجد عبد الله بن مكرم ، رئيس الشهود المحترفين ، عدداً وافراً منهم ، وافقوا على الحكم ، بلغ فيما يقال ٨٤

وذلك بإضافة فقهاء وقراء إلى أعضاء المحكمة ، وكان جزاء ابن مكرم ظفره بمنصب القضاء ، بطريقة شرفية ، أى لا يمارس القضاء فعلا » .

الحلاج ينذر الخليفه :

أدرك الحلاج أن المؤامرة قد بلغت نهايتها ، وأنه فى طريقه إلى الإستشهاد ، الإستشهاد الذى طالما حن إليه ، وتنبأ به .

كما أدرك الهدف من هذا الحشد من الاتهامات الدينية ، التى تصوره دجالا مشعوذاً تارة ، وملحداً مارقاً تارة أخرى ، إنها تستهدف أول ما تستهدف ، أن تزلزل فى قلوب الجماهير ، تلك القدسية الدينية التى تنطوى عليها قلوبهم للحلاج .

وأن تظهر الخلافة وأنصارها ، بمظهر الدفاع عن العقيدة الإسلامية وحمايتها .

وبين تهاويل هذه الإتهامات وضجيجها ، تختنق وتختفى صيحات الحلاج ، فى الإصلاح السياسى والإجتماعى ، وتذوب وتتوارى ، حملاته على الفساد والمفسدين ، والمنحلين والمحتكرين .

فإذا انطفأ ذلك البريق الساحر ، الذى يترقرق حول الحـــلاج ، وتمزقت تلك الهالة المضيئة التى تحيط بكلماته وحياته ، وتقطعت الخيوط الروحية ، التى تربطه بوجدان الشعب وضميره ، وحيل بين البطل ورداثه ، والولى وشعاعه .

حينئذ تستطيع الخلافة أن تضرب ضربتها الإنتقامية الكبرى ، وأن

تخضب وجه الأرض ، بدم مهدر ضائع ، لا يثور من أجله محب ، ولا يغضب له منتقم ! !

أدرك الحلاج هذا كله وقدره ، بل وصوره لنا فى مشاهد حية ، تكاد لصدقها ، تكون نبوءة مبصرة .

لم يجزع الحلاج ولم يضطرب ، لقد أدرك بذوقه وبوجدانه ، منذ أمد بعيد ، أنه فى طريقه إلى الإستشهاد .

ولكنه اعتزم أن يمضى قدماً فى منهجه ورسالته ، وأن يقول كلماته الأخيرة ، للخليفة نفسه .

وطلب الحلاج مقابلة الخليفة ، والخليفة دائماً كان يخاف الحلاج ويرهبه ، وكان يحرص الحرص كله ، على أن يبدو أمام الجماهير ، بريئاً من عذابه ودمه .

وأذن الخليفة بمقابلة الحلاج ، كما أذن أيضاً للوزير حامد بأن يشهد هذه المقابلة ، بناء على طلبه وإلحاحه .

وحُمل الحلاج مقيداً إلى الخليفة ، فدخل مرفوع الرأس ، مشرق الوجه ، وألقى بتحية الإسلام .

ثم أخذ يحذر الخليفة وينذره ، ويطالبه بإصلاح الأداة الحكومية حتى يرضى الله عنه ، وبإبعاد المفسدين فى الأرض ، وبتطبيق الشريعة روحاً ونصاً ، حتى تتحقق رسالة القرآن .

ثم انتقل الحلاج بالحديث إلى قضيته ، وموقف الخليفة منها ، فحذره الغرور بالخلافة ، والإعتزاز بالملك ، لأن من اعتز بغير الله ذل ، وأفهمه أنه آلة يحركها القدر الإلهى ... ثم قال :

« (١)من أطاع الله أطاعه كل شيء ، ثم حاكم ومحكوم عليه ، وواسطة هي السبب ، في إيصال الحكم بالمحكوم عليه ، فإن كان ثم جور أو عدل ، نُسب إلى الواسطة في الظاهر ، والرب يتحاشى عن أن يوصف بذلك .

وإنما أنت واسطة ، تنفذ أحكام الرب ومشيئته ، فيمن يشاء من عباده ، بما شاء ، كما شاء .

وأنا عبد من عبيد الله ، مستسلم لقضاء الله ، صابر لحكم الله ، راض بقضاء الله ، فافعل ما حركت له ، واعمل بما استعملت فيه ،

وكن بعد ذلك شديد الحذر ، فيما تأتى به وتذر ، وانظر في عواقب أمرك وتأمل ما تأتيه بثاقب فهمك ، وصافى فكرك ، فإن رأيت الصلاح فيما قام في نفسك ، فامض حكم عدلك .

وإني لا أعترض عليك ، ولا ألومك في فعلك ، ولكني أقول ، كما قال الخليل . . وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين » .

ثم خرج الحلاج كما دخل ، مرفوع الرأس ، مشرق الوجه ، مطمئن القلب ، لقد أدى واجبه كاملا ، وإنه لفي طريقه إلى القمة ، القمة الشاهقة ، قمة الإستشهاد في رداء من البطولة السامقة ، بل في إشراقة متلألئة ، من المحبة المضحية .

---

(١) من مخطوطات الحلاج نشر ماسنيون . . باريس

الخليفة يعتمد الحكم :

وخيم على القصر صمت مطبق ، حزين مرتعد ، لقـــد جاءت الساعة الحاسمة ، وقلب الخليفة ، الذى طالما انتظر هذه اللحظة وتمناها ، إنه ليخفق اليوم ، خفقات أقرب إلى الرعب ، منها إلى البهجة والنصر .

إن بغداد لترتعد غضباً لولبها ، وإن رعدة الغضب لتوشك أن تنفجر ، وإن فى انفجارها ، لما يرعب الخليفة ، ويمزق وجدانه ، ويحرق قلبه .

يقول ماسنيون : « وأصيب الخليفة بالحمى فى اليومين التاليين للحكم على الحلاج ، وفى هذا الجو العاصف ، بذل نصر أمير البلاط ، ووالدة الخليفة سعيهما لدى الخليفة ، فبدل حكم الإعدام » .

ويقول الخطيب البغدادى مصوراً لهـذه الفترة الحرجة[1] — على لسان زنجى — : « وأبطأ الجواب يومين ، فغلظ ذلك عـلى حامد ، ولحقـــه ندم على ما كتب به ، وتخوف أن يكون قد وقع غير موقعه .

ولم يجد بداً من نصرة ما عمله ، فكتب بخط والدى رقعة إلى المقتدر بالله ، فى اليوم الثالث ، يقتضى فيها ما تضمنته الأولى ، ويقول :

إن ما جرى فى المجلس قد شاع وانتشر ، ومتى لم يتبعه قتـل الحلاج افتتن الناس به ، ولم يختلف عليه اثنان ، ويستأذن فى ذلك ، وأنفذ الرقعة إلى مفلح ، وسأله إيصالها ، وتنجيز الجواب عنها ، وإنفاذه إليه .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٤٠

ويقول ماسنيون[1] : « هنالك لوح حامد أمام الخليفة ، بشبح ثورة اجتماعية حلاجية ، وراح يسعى للإتفاق مع كبير القواد مؤنس ، على الخلاص من الحلاج وأصدقائه » .

وتدخل مؤنس بنفوذه العسكرى الكبير لدى الخليفة ، وتحت إلحاحه المتواصل ، وقع الخليفة فى تردد أمر الإعدام ، ملقياً بتبعة دمه على القضاء .

يقول البغدادى[2] : « فعاد الجواب من المقتدر بالله — إلى حامد — بأن القضاة إذا كانوا قد أفتوا بقتله ، وأباحوا دمه .

فلتحضر محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة ، وليتقدم إليه بتسلمه وضربه ألف سوط ، فإن تلف تحت الضرب ، وإلا ضرب عنقه .

فسر حامد بهذا الجواب ، وزال ما كان عليه من الإضطراب ، وأحضر محمد بن عبد الصمد ، وأقرأه إياه ، وتقدم إليه بتسلم الحلاج ، فامتنع من ذلك ، وذكر أنه يتخوف أن ينتزع منه .

فأعلمه حامد ، أنه سيبعث معه غلمانه ، حتى يصيروا به إلى مجلس الشرطة فى الجانب الغربى .

ووقع الإتفاق على أن يحضر بعد عشاء الآخرة ، ومعه جماعة من أصحابه ، وقوم على بغال مؤكفة ، يجرون مجرى الساسة — ويلبس الحلاج مثلهم ، ويدخل فى غمارهم — حتى لا ينتزع .

(١) شخصيات قلقة ص ٧٧

(٢) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٤١ — ١٤٢

وأوصاه بأن يضربه ألف سوط ، فإن تلف حز رأسه ، واحتفظ به ، وأحرق جثته .

وقال له حامد : إن قال لك ، أجرى لك الفرات ذهباً وفضة ، فلا تقبل منه ، ولا ترفع الضرب عنه .

فلما كان بعد عشاء الآخرة ، وافى محمد بن عبد الصمد إلى حامد ، ومعه رجاله والبغال المؤكفة ، فتقدم إلى غلمانه بالركوب معه ، حتى يصل إلى مجلس الشرطة .

وتقدم إلى الغلام الموكل به ، بإخراجه من الموضع الذى هو فيه ، وتسليمه إلى أصحاب محمد بن عبد الصمد .

وأخرج الحلاج وأركب بعض تلك البغال ، واختلط بجملة الساسة ، وركب غلمان حامد معه حتى أوصلوه إلى الجسر ثم انصرفوا ، وبات هناك محمد بن عبد الصمد ورجاله » .

ليلة المصرع !؟

عن إبراهيم بن شيبان قال[1] دخلت على ابن سريج القاضى ، يوم أفتوا فى قتل الحلاج ، فقلت : يا أبا العباس ، ما تقول فى فتوى هؤلاء ، فى قتل هذا الرجل ؟ قال : لعلهم نسوا قول الله تعالى : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » .

ويقول الواسطى : « [2]قلت لابن سريج ، ما تقول فى الحلاج ؟ قال : أما أنا أراه حافظاً للقرآن ، عالماً به ، ماهراً فى الفقه ، عالما بالحديث والأخبار والسنة ، صائماً الدهر ، قائماً الليل يعظ ويبكى » .

وهكذا كان الحلاج ، حتى فى ليلة الهول ، ليلة المصرع ، لقد أعرض عن الدوىّ الذى أحدثه النبأ العظيم ، وأقبل على ربه يناجيه بمواجيد قلبه ، وألحان حبه .

يقول ابنه أحمد : « [3]فلما كانت الليلة التى أخرج فى صبيحتها والدى من الحبس — للقتل — قام فصلى ركعتين ، فلما فرغ من صلاته ، لم يزل يقول : مكر ، مكر ، إلى أن مضى من الليل أكثره ، ثم سكت طويلا ثم قال :

---

(١) أخبار الحلاج طبع باريس

(٢) » » » »

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ ص ١٤١ — ١٤٢

حقٌ ، حق ، ثم قام قائماً وتغطى بإزار ، وائتزر بمئزر ، ومد يديه نحو القبلة ، وأخذ فى المناجاة .

وكان خادمه أحمد بن فاتك حاضراً ، فحفظنا بعضها ، فكان من مناجاته :

نحن بشواهدك نلوذ ، وبسنا عزتك نستضىء ، لتبدى ما شئت من شأنك ومشيئتك ، وأنت الذى فى السماء إله ، وفى الأرض إله .

يا مُدهِّر الدهور ، ومصوِّر الصور ، يا من ذلت لك الجواهر ، وسجدت لك الأعراض ، وانعقدت بأمره الأجسام ، وتصورت عنده الأحكام .

يامن تجلى لما شاء ، كيف شاء ، مثل التجلى فى المشيئة ، لأحسن صورة ، والصورة هى الروح الناطقة ، التى أفردته بالعلم والبيان والقدرة .

ثم أوعزت إلى شاهدك لما أردت بدايتى ، وأظهرتى ، عند عقيب كراتى ، وأبديت حقائق علومى ومعجزاتى ، صاعـــداً فى معارج إلى عروش أزلياتى ، عند القول من برياتى .

إنى أحتضر ، وأقتل ، وأصلب ، وأحترق ، وأحمل على السافيات(١)

ثم أنشأ يقول :

أنعى إليك نفوساً طاح شاهدها — فيما وراء الحيث أو فى شاهد القدم
أنعى إليك قلوباً طال ما هطلت — سحائب الوحى فيها أبحر الحكم
أنعى إليك لسان الحق مذ زمن — أودى وتذكاره فى الوهم كالعدم
أنعى إليك بياناً تستكين له — أقوال كل فصيح مِقولٍ فهِم
أنعى إليك إشارات العقول معاً — لم يبق منهن إلا دارس الرمم

---

(١) الرياح .

أنعى وجبلك أخلاقاً لطائفة ... كانت مطاياهم من مُكد الكَظم
مضى الجميـــع فلا عين ولا أثر ... مضى عاد وفقدان الأُلى إرم
وخلفوا معشراً يحذون لبسهم ... أعمى من البُهم بل أعمى من النعم

وعن إبراهيم بن فاتك قال : « [1] دخلت على الحلاج فى الليلة الأخيرة وهو فى الصلاة ، مبتدئاً بقراءة سورة البقرة ، فصـــلى ركعات حتى غلبنى النوم .

فلما انتبهت سمعته يقرأ سورة — حم عسق — فعلمت أنه يريد الختم ، فختم القرآن فى ركعة واحدة ، ثم قرأ فى الثانية ما قرأ ، ثم ضحك إلىّ وقال : ألا ترى أنى أصلى لرضائه ، من ظن أنه يرضيه بالخدمة ، فقد جعل لرضاه ثمناً ! ؟ » .

ويقول الرزاز : « [2] كان أخى خادماً للحسين بن منصور فسمعته يقول : لما كانت الليلة التى وعد من الغد بقتله ، قلت : يا سيدى أوصنى ، فقال لى :

« عليك بنفسك إن لم تشغلها شغلتك » .

ثم أنشأ يقول :

عجبت منك ومنى ... يا منيـــة المتمنى
أدنيتنى منك حتى ... ظننت أنك أنى
وغبت فى الوجد حتى ... أفنيتنى بك عنى

---

(١) أخبار الحلاج
(٢) « «

ثم أخذ يترنم ويرقص ، وهو فى حالة من النَّشوة العارمة ، والوجد العنيف ، جعلت ابن خفيف ، يعتقـــد أن جدران سجنه كانت أيضاً تترنم بقوله :

لى حبيب حبه وسط الحشا لو يشا يمشى على خـدى مشى
روحه روحي ، وروحي روحه إن يشا شئت ، وإن شئت يشا

مصرع الشهيد

وجاء يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى القعدة ، سنة تسع وثلاثمائة ، فشهدت بغداد أكبر حشد عرفه تاريخها ! !

اجتمع هذا الحشد العظيم ، على ضفاف دجلة ، راجف القلب ، دامع العين ، كظيم الغيظ ، وتركزت نظراته على الحـــلاج ، الذى وقف فى أغلاله وقيوده ، مشرق الوجه ، عال الرأس ، شامخاً جليلا وقد أحاطت به صفوف الجند ، وطوقته زبانية العذاب ، وارتفعت إلى السماء قوائم خشبية غليظة جللت بالسواد ، هى الآلة التى أعدت ، لجلده وعذابه وصلبه .

قال الياقوتى : « سمعت الحلاج عند ما تقدم للصّلب يقول : يا معين الفناء علىّ أعنى على الفناء » .

ويقول القاضى أبو العلاء الواسطى : « لما جىء بالحسين بن منصور الحلاج ليقتل ، أخذ يتبختر فى قيده ، وهو ينشد :

طلبت المستقَر بكل أرض فلم أر لى بأرض مستقراً
فنلتُ من الزمان ونال منى وكان مناله حلواً ومراً

وعن إبراهيم بن فاتك قال : « (1) لما أتى بالحسين بن منصور ليصلب ،

(1) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ١٠ — ١١

رأى الخشبة والمسامير ، فضحك كثيراً حتى دمعت عيناه ، ثم التفت إلى القوم ، فرأى الشبلى بينهم ، فقال له :

يا أبا بكر ، هل معك سجادتك ؟ فقال : بلى يا شيـــخ ، قال : أفرشها لى ، ففرشها ، فصلى الحسين بن منصور عليها ركعتين ، وكنت قريباً منه ، فقرأ فى الأولى ، فاتحة الكتاب ، ثم قوله تعالى : « لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع .. الآية » وقرأ فى الثانية ، فاتحة الكتاب ، ثم قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت .. الآية » فلما سلم ذكر أشياء لم أحفظها ، وكان مما حفظته قوله :

اللهم إنك المتجلى(١) عن كل جهة ، المتخلى عن كل جهة ، بحق قدمك على حدثى ، وحق حدثى تحت ملابس قدمك ، أن ترزقنى شكر هـــذه النعمة ، التى أنعمت بها علىّ ، حيث غيبت أغيارى عما كشفت لى من مطالع وجهك ، وحرمت على غـــيرى ما أبحت لى من النظر فى مكنونات سرك .

هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى !؟ تعصباً لدينك ، وتقرباً إليك ، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى ، لما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترت عنى ما سترت عنهم ، لما ابتليت بما ابتليت ، فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد !!

ثم سكت وناجى سراً ، فتقدم أبو الحارث السياف ، فلطمه لطمة هشمت أنفه ، وسال الدم على شيبه !!

فصاح الشبلى ومزق ثوبه ، وغشى على أبى الحسن الواسطى ، وعلى

---

(١) المتجلى والمتخلى : المنزه عن الجهة والمكان . سبحانه وتعالى .

جماعة من الصوفية المشهورين ، وكادت الفتنة تهيج ، ففعل أصحاب الحرس ما فعلوا !! » .

ثم تقدم صاحب الشرطة ، فشده إلى آلة الصلب ، ثم أمر الجلاد بأن يضربه ألف سوط ، فأخذ يضربه وهو صامت لا يتأوه ، ولا يضطرب ، ولا يستعفى ، وإنما يقول : أحد أحد ، حتى بلغ ستمائة سوط ، فقال لصاحب الشرطة :

أدنو منى فإن عندى نصيحة ، تعدل عند الخليفة ، فتح قسطنطينية ، فقال له : قد قيل لى عنك ، أنك تقول هذا وأمثاله ، وليس لى أن أرفع الضرب عنك ، فسكت حتى ضرب ألف سوط !!

فلما أتم الجلاد ما كلف به ، أخذ الحلاج يتواجد ويتبختر فى مشيته ، وفى قدميه ثلاثة عشر قيداً ، ثم راح وهو فى ثمل روحى عميق ينشد :

نديمى غير منسوب — إلى شىء من الحيف
دعانى ثم حيانى — فعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس — دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح — مع التنين[1] فى الصيف[2]

ثم قال : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد » .

---

(١) التنين : هو زهرة أنف الأسد ، وقد أخطأ الرواة فكتبوها التنين .
(٢) ديوان الحلاج .

بتر يداه :

ثم تقدم الجلّاد مسهراً سيفه ، ومن حوله حملة الرماح والدروع ، فقطع يده اليمنى ، ثم يده اليسرى ، ولم يجزع الحلاج ولم يتأوه ، ولم تفارق الإبتسامة شفتيه ، ولم يفتر لسانه عن ذكر الله ومناجاته !!!

لقد اعتصم الحلاج بشيء أعظم من كل ما يدب على وجه الأرض ، من عدوان وبغى ، اعتصم بإيمانه ، ولاذ بحبه ، ولجأ إلى ربه ، فغاب عن نفســـه ، وعن حسّه ، وسما إلى الأفق الأعلى ، فعاش فى نشوة المشاهدة ، ونعيم القرب ، فأنساه ما يرى ، وما يتذوق ، هول ما يلقى من آلام وعذاب !!

ولما أخذ وجهه فى الإصفرار لكثرة ما نزف من دمه ، شال بذراعه على وجهه[1] فخضبه بالدم حتى يخفى اصفراره ، وقال مبتسما : ركعتان فى العشق ، لا يصح وضوؤهما إلا بالدم !!

ثم أنشد مترنماً :

وحرمة الود الذى لم يكن ... يطمع فى إفساده الدهر
ما نالنى عند هجوم البلا ... بأس ولا مسنى الضر
ما قُدّ لى عضو ولامفصل ... إلا وفيه لكم ذكر[2]

---

(١) مشورات صوفية لماسينيون .
(٢) ديوان الحلاج .

وتطاير هـــذا النشيد الحار المؤمن ، إلى الجماهير المحتشدة ، فارتفع الزئير المرعد من أفواه الرجال ، وأغمى على كثير من النساء ، وماجت الصفوف بالتهديد السافر ، والغضب المتوهّج .

وأسرع الجند إلى سياطهم وحرابهم ، وازداد الموقف توتراً فى ساحة الصّلب !؟ بينما طافت نذر الثورة فى أزقة بغداد وشوارعها .

وزاد الحقد والغضب بحامد وعصبته ، فأخـــذوا يتصيّدون بعض أعوانهم ، من صفوف الصوفية والفقهاء ، ليدفعوا بهم حول منصة الصلب ، ليرموا الحلاج بالسباب ، ويتهموه بالمروق ، علّ هذا الإتهام يخفّف من إيمان الجمهور به ، وغضبته له .

يقول ابن كثير :

« (١)وجاء أبو الحسن البلخى عند الخشبة ، وقال — للحلاج — : الحمد لله الذى أمكن منك يا عدو الله ؟ كيف رأيت بوس الناس فى يديك ، وقولهم لك يا سيدى ومولاى وأنت راض بذلك » .

ويقول ماسنيون :

« (٢)وأخذ الجند يحضرون بعض أفراد من الصوفية لينالوا من الحلاج ثم يقول :

وأتى الجند بالشبلى وقد وضعوا منديله فى عنقه ، وهم يسحبونه إلى الحسين بن منصور ليلعنه !! فتأبى من ذلك وقال : اتركونى ، فقالوا :

---

(١) البداية والنهاية ح ١١

(٢) منشورات صوفية .

ما نتركك حتى تلعنه ، أو ترسل إليه رسولا بذلك ! ؟

والتفت الشبلي يميناً وشمالا فرأى فاطمة الأموية ، فقال لها : أدنى منى ، فدنت ، فقال لها : إذهبي إلى الحسين بن منصور فقولى له : إن الله قد ائتمنك على سر من أسراره فأذعته ، فأذاقك طعم الحديد ، واحفظى ما يقول لك .. ثم اسأليه عن التصوف ، وما هو ؟ ؟

ومضت فاطمة إلى الحلاج ، فقالت : أنا رسولة أبي بكر الشبلي ، فابتسم الحلاج ، ثم قال : هاتى ما معك .

فقالت له : إنه يقول لك : إن الله قد ائتمنك على سر من أسراره فأذعته ، فأذاقك طعم الحديد ، فأنشأ يقول :

تجاسرتُ فكاشفتـ ـك لما غلب الصبر
وما أحسن فى مثلـ ـك أن ينتهك السِّتر
وإن عنَّفنى الناس ففى وجهك لى عذر
كأن البدر محتاج إلى وجهك يا بدر

ثم قال : اذهبي إلى أبي بكر فقولى له : يا شبلي والله ما أذعت له سراً .

فقالت فاطمة : فما حقيقة التصوف ، فقال : أهون مرقاة فيه ما ترين ؟ قالت : فما أعلاه ؟ قال : ليس لك إليه سبيل ، ولكن سترين غداً ما يجرى ، فإن فى الغيب ما شهدته وغاب عنك .. ثم قال والله ما فرقت بين نعمة وبلوى ، ساعة قط .

فجاءت فاطمة إلى الشبلي ، فأعادت عليه ذلك ، فصاح الشبلي : يا معشر الناس : الجواب الأول لكم والثانى لى ؟ » .

عذاب الحلاج !!

ثم قام الحراس فشدوا وثاقه إلى آلة الصلب ، وأخذوا يتفننون فى إيلامه وعذابه بألسنتهم وسياطهم .

ومضى يوم ، وغربت الشمس ، وجاءت الليلة الأولى ، من ليال العذاب ، فباتها الحلاج على صورة لم تعرف لغيره فى التاريخ .

باتها مقيداً مصلوباً مقطوع اليدين ، تنزف جراحه دما ! ؟ وبات جمهور البغداديين حوله ، على الضفة الغربية لدجلة ، يرقب المأساة ، ويشهد الفاجعة ، ويتتبع بعواطف متضاربة ، مشاهد مسرحية حية دامية .

يشهد صراعاً عجباً فذاً تدور رحاه ، حول رجل أعزل ، ينازل وحده ، فى بطولة متحدية ، صابرة شامخة ، القوى الحاكمة فى العراق ، وهى أعظم قوى الأرض فى عصرها !!

وكان منظراً مسرحياً ، لم تشهد مسارح الدنيا مثيلا له من قبل ، مئات المشاعل تضىء شواطىء دجلة ، وتكشف آفاقها ، وتغمر مياهها بالألوان والظلال .

وهنا وهناك قامت حلقات وأروقة ، للذاكرين من الصوفية ، وللمجادلين من المعتزلة ، وللمتناظرين من الحنابلة ، وللمتعصبين من الشيعة ، يديرون حديث القلب والعقل حول المشهد العظيم ، الذى هز بغداد وأطار النوم من جفونها .

وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، شتيت من الأجناس والطوائف ، المتعددة الأهواء والثقافات ، والميول والإتجاهات .

ويمشى بين صفوف هؤلاء وهؤلاء تلاميذ الحلاج وأحبابه ، يتحدثون عن إيمانه ورسالته ، وكراماته وعجائبه ، ويشتطُّ الخيال بفريق منهم ، فيذهب بهم بعيداً بعيداً ، ليضفى على الحلاج قداسات أكثر مما تطيق البشرية ، وأعلى مما تستطيع الإنسانية !!

وتتلقف آذان الجماهير ، هـــذه الأحاديث البارعة الملونة ، فتخفق قلوبهم ، للشهيد المعذب المصلوب ، وتثور عواطفهم ، للقطب المضطهد المظلوم !!؟

وداخل هذا الإطار الكبير بألوانه وظلاله ، يقف الحلاج مشدوداً بوثاقه على مصلبه الدامى ، مترنماً بألحانه ، محلقاً فى نشوة قلبية أكبر من آلامه ، وفى ثمل روحى أعظم من عذابه .

إنه فى عالمه العُلوى الروحى المضيء ، بعيداً بعيداً ، عن الأرض وما يدبَّر فيها ، وما يصب عليها !!

إن صمود الحلاج على مصلبه ، لزاد من الخلود كما يقول الشبلى ، أعلى مما يفهم ، من لم يذق مذاقه ويحيا حبه !؟

قطع قدماه ! !

وجاء صباح اليوم الثانى ، فتضاعف كما يقول « ابن كثير » عـــدد البغداديين حول مصلبه ، واجتمع من العامة عدد لا يحصى[1] .

وبدأ العذاب من جديد فى يومه الثانى ، فقطعت رجله اليمنى ، ثم اليسرى ، ومع قطرات الدم ، ارتفعت السياط ، تمزق ما بقى من هذا الأديم الصابر الصامد ! !

يقول الخطيب البغدادى : «[2] سمعت فارساً يقول : قطعت أعضاء الحلاج ، عضواً عضواً وما تغير لونه ، وما فتر لسانه عن ذكر الله. »

وعن ابن فاتك قال : «[3] لما قطعت رجلا الحـــلاج قال : إلهى أصبحت فى دار الرغائب ، أنظر إلى العجائب ، إلهى إنك تتودد إلى من يؤذيك ، فكيف لا تتودد إلى من يؤذى فيك » .

ثم أنشد :

اقتــــلونى يا ثقاتى   إن فى قتلى حياتى
ومماتى فى حياتى   وحياتى فى مماتى

---

(١) البداية والنهاية ج ١١
(٢) تاريخ بغداد ج ٨
(٣) أخبار الحلاج ص ٥٦

إن عندى محو ذاتى　　من أجلّ المكرمات
وبقائى فى صفاتى　　من قبيح السيئات
فاقتلونى واحرقونى　　بعظامى الفانيـــات
ثم مروا برفاتى　　فى القبور الدارسات
تجـدوا سر حبيبى　　فى طوايا الباقيات(١)

ثم تتابعت مشاهد العذاب ، من جلد وصفع وركل وسباب ، والحلاج على مصلبه ، ممزق الجسد ، تتساقط قطرات الدماء من سائر جسده ، وهو فى نشوة روحية ، بل فى ثمل روحى أعلى وأسمى وأقوى ، من كل ما صُب عليه من هول وعذاب !!

إنه فى تسابيحه ومواجيده ومناجاته ، غير ملتفت إلى ما يمّر منه ، وما يحيط به !

لقد تفتحت له أبواب السماء ، وأحاطت به هالات من النور ، وفى سمعه ، ألحان من الأفق المضىء ، وترنيمات من أوتار خفية ، يوقّع على موسيقاها ابتهالاته الخالدة .

إذا ذكرتك كاد الشوق يُقـلقنى　　وغفلتى عنك أحزان وأوجاع
وصار كلى قلوباً فيك داعية　　للسقم فيها وللآلام إسراع(٢)

* * *

يا لائمى فى هواه كم تلوم فلو　　عرفت منه الذى عنيت لم تلم

---

(١) ديوان الحلاج طبع باريس
(٢) » » ص ٧٢ طبع باريس

للناس حج ولى حج إلى سكنى   تهدى الأضاحى وأهدى مهجتى ودمى(1)

***

لا تلمنى فاللوم منى بعيد   وأجر سيدى فإنى وحيد
من أراد الكتاب هذا خطابى   فاقرأوا واعلموا بأنى شهيد(2)

***

ثم تتابعت مشاهد ، تجلت فيها أسمى ما فى النفوس الإنسانية من مثاليات ، وأحط ما فى الغرائز البشرية من صفات .

فقد أقام حامد وصحبه حول مصلب الحلاج ، أعواناً لهم ، يملأون الدنيا سباباً وصياحاً هاتفين : اقتلوا الحلاج الزنديق ، وفى أعناقنا دمه !!

ثم أخذ الجند يجمعون الفقهاء والصوفية ليرجموا الحلاج ، وهو فى موقف الهول والعذاب ، فامتنع فريق كبير عن هذا الإثم ، صبروا وصابروا ، واحتملوا الجلد والسجن ولم تقترف أيديهم السوء !!

ثم جىء بالشبلى ، تلميذ الحلاج وصديقه وصفيه ، جىء به ليرجم الحلاج ، وأقسموا على قتله إن لم يفعل !!

وأذن له الحلاج وطالبه بأن يفعل صوناً لدمه ، فرماه بوردة ... ثم بكى وصاح : « إن استشهاد الحلاج درة من الجمال المحرم ، إنه زاد خلود ، لا يظفر به إلا الأبطال ، وليس بزاد يوزع على الجميع » .

---

(1) ديوان الحلاج ص ٨٥ طبع باريس
(2) « « « ٥١ « «

يقول ماسنيون : « [1]وفى وسط هذا كله ، الحلاج نفسه مصلوباً خارجاً عن طوره ، مظهراً للجميع من فوق مقصلته ، وهو فى حالة من الوجد تجاوز ببدنه حد الموت ، شخصية المسيح الخالدة ، كما وصفها القرآن ، وكأنه الصورة المعبرة المتجلية فيها روح الله : — وما قتلوه وما صلبوه ».

ومضى اليوم الثانى ، وجاءت الليلة الثانية ، على الشهيد الصامد ، لهول لم يصمد له أحد من قبل !

ومضى الليل ثقيلا بطيئاً ، ورفرف الموت على الساحة الكبرى وأخذت ظلال المشاعل ترسم أطيافاً حزينة باكية .

والمصلوب المعذب فى نشوته ومناجاته وضراعاته ، التى ترسم فى عالم الروح ، صرخات تهز عالم النور .

عالم الروح والنور ، الذى سعى إلى الحلاج ليؤنسه فى لحظاته الأخيرة ، تلك اللحظات التى صورها لنا الحلاج على مصابه فى آخر قصائده . . .

---

(١) شخصيات قلقة ص ٨٢

قصيدة المصلب[1] :

وفيها يروى قصته كاملة ، بذلك النغم المأثور عن الصوفية ، فى حالات الشطح والسبح الروحى .

فيحدثنا عن فنائه فى الله ، ذلك الفناء الذى أورثه البقاء به سبحانه ،

ومن بقى بالله عاش فى عالم المشاهدة ، وتفتحت عين روحه ، لتطل على الوجود .

ثم يقول : إنه الباز الأشهب فى عالم الروح ، وهو مقام أعلى وأسمى من القطبانية ، وأن شربه من مقام الصديقية ، وهو مقام لا يعلوه إلا مقام النبوة ، وأنه غدا ربانياً يعيش تحت العرش ، وأنه قد حطم ببرهانه جبال الأكاذيب التى أحاطت به .

وأنه الذى شاع ذكره فى الملأ الأعلى ، وأنه خاض بحر الهوى قوياً كحوت يونس ، وأخرج أروع جواهره .

ولكنه لم يجد فى عصره ، من يفهم قيمة هذه الجواهر ، فأصبح كمن يبيع الجوهر للفحامين !! وكالذى يوقد الشموع فى قاعات العميان !! وكالذى يضع السر فى أكمام عريان .

---

(١) نشرت هذه القصيدة لأول مرة بسوريا ، ثم نشرها ماسنيون في ديوان الحلاج فى طبعته الثانية عام ١٩٥٥ وسننشرها فى موضعها من هذا الكتاب .

ثم يعرض علينا فى إطار فخم ، حوادث مصرعه ، وكيف احتشد الأقطاب والأولياء جميعاً ، وفى مقدمتهم الخضر ، لمؤانسته وتحيته ، وأن السيف خاطبه وناجاه ، ولو أراد لامتنع السيف عنه ، ولو شاء لهدم بغداد على البغاة ، ولكن الخضر والأقطاب ، طالبوه بأن يموت شهيداً كما مات ابن عفان ، وأن لا يخلع أبداً الخلافة الباطنية ، كما لم يخلع ابن عفان الخلافة الظاهرية .

ذلك تصوير الحلاج لموقفه ولمصرعه ، وذلك نشيده يوم الهول ، وليلة الموت !!

عجائب يوم المصرع :

يقول ابن خفيف : « [1] تقدمت إليه فى الليلة التى صلب فيها ، فلما رأيته على خشبته بحالته ، توليت وأنا مفكر فى أمره !!

فإذا به ينادينى : أن أقبل ، فأقبلت إليه ، فقال لى : عاملناه بالحقيقة ، فعمل بنا ما ترى !!

ومضى الليل الطويل بهوله ، وجاء اليوم الثالث بعذابه ومع الفجر طافت جموع الشعب ببغداد ، تحطم وتدمر ، وتطالب بإنقاذ الحلاج ، أو بإنقاذ ما تبقى منه !!

وارتعد الخليفة وجبن ، وأسرع إليه حاجبه نصر القشورى ، ووالدته — شغب — ينذرانه عاقبة المأساة الحلاجية ، ويناشدانه باسم الدين والإنسانية ، العفو عن الجسد الممزق ، والبطل المصلوب ، الذى توشك الدماء السائلة منه ، أن تدفع ببغداد إلى ثورة مدمرة تطيح بكل شيء .

وخضع المقتدر للرجاء ، أو خضع للخوف ، فاعتزم العفو ، وبلغ مسمع حامد ما يدور فى القصر ، فأسرع إلى الخليفة يناشده أن يتم ضربته الكبرى ، منذراً بأن العفو فى هذه الساعة الحاسمة ، قد يلهب بغداد أكثر مما يلهبها القتل !

---

(١) منشورات صوفية . طبع باريس

ثم صاح حامد : أقتله يا أمير المؤمنين ، وفى عنق دمه ، أقتله وإن حدثت الثورة التى يتنبأ بها نصر فاقتلنى ، أقتله قبل أن تثور العاصفة !!

وبين التردد والعزم ، صدر الأمر الأخير من فم الخليفة : اقطعوا رأس الحلاج ، وأحرقوا جسده !!

يقول ماسنيون : « [1]وبينما كان الثائرون يحرقون بعض الدكاكين ، وقد أبطأ أمر الخليفة المعتاد بالإجهاز عليه ، كان حامد يستحث المقتدر على الموافقة على الأمر بالإعدام ، قائلا : إن أصابك شىء فاقتلنى » .

ويقول ابن كثير : « [2] فلما كان اليوم الثالث ، تقدم حامد إلى الخشبة ، فتلى أمر الخليفة ، ثم قرأ فتوى الفقهاء ، بأن فى قتل الحلاج صلاح أمر المسلمين ! ثم أمر الجلاد بقطع رأسه والإجهاز عليه » .

ويقول الحلوانى : « [3] قدم الحلاج للقتل وهو يضحك ، فقلت : يا سيدى ما هذا الحال ؟ قال : دلال الجمال ، الجالب إليه أهل الوصال » .

ويقول عيسى القصار : « [4] آخر كلمة تكلم بها الحلاج عند قتله وصلبه أنه قال : حسب الواجد ، إفراد الواحد له ، فما سمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ ، إلا رق له ، واستحسن هذا الكلام » .

ويقول ابن خفيف : « (٥) ثم ضرب عنقه فبقى جسده ساعتين من

---

(١) شخصيات قلقة ص ٧٧

(٢) البداية والنهاية ج ١١

(٣) الكواكب الدرية للمناوى ج ٢

(٤) اللمع للسراج الطوسى

(٥) أخبار الحلاج طبع باريس

النهار قائماً ، ورأســه بين رجليه ، وهو يتكلم بكلام لا يفهم ، فكان آخر كلامه : أحد ، أحد .

فتقدمت إليه ، فإذا بالدم يخرج منه ويكتب على الأرض : الله ، الله ، فى أحد وثلاثين موضعاً ، ثم أحرق بالنار !!؟» .

ويقول العلامة المناوى : «(1) ولما وقع دمه على الأرض ، كتب : الله ، الله ، إشارة لتوحيده ، وإنما لم يكتب دم الحسين بن على رضى الله عنهما ذلك ، لأنه لا يحتاج لتبرئة بخلاف الحلاج ؟» .

ويقول ابن الجوزى : «(2) ولم يبق ببغداد إلا من شهــد قتله ، والتفت إلى الناس وهو على الجذع — قبل قتله — وقال : من حضر بطلت شهادته ، ومن غاب قبلت شهادته ، وناداه بعض الصوفية وهو مصلوب : من طلق الدنيا كانت الآخرة حليلته» .

ويروى ابن أنجب الساعى عن الشيرازى ، أنه قال : «(3) لما صلب الحلاج بقى ثلاثة أيام لم يمت فأنزلوه وفتشوه ، فوجدوا معــه ، ورقة مكتوبة بخطه ، وفيها آية الكرسى ، وبعدها هذا الدعاء :

اللهم ألق فى قلبى رضاك ، واقطع رجائى عمن سواك ، وأعنى باسمك الأعظم ، وأغننى بالحلال عن الحرام ، وأعطنى ما لا ينبغى لأحـــد غيرى — بحم عسق — وأمتنى شهيداً — بكهيعص — » .

ثم لف جسده فى بارية ، وصب عليه النفط وأحرق ، وحمل رماده

---

(1) الكواكب الدرية ، فى تراجم السادة الصوفية ، للمناوى ج ٢ ص ٢٥

(2) مرآة الزمان ، للسبط ابن الجوزى

(3) أخبار الحلاج طبع باريس ص ٢٤

على رأس منارة لتنسفه الريح ، فى السادس والعشرين من ذى القعدة سنة تسع وثلاثمائة هـ ٢٦ مارس ٩٢٢ م .

ونصب رأسه يومين على الجسر ببغداد ، ثم طيف به فى خراسان ، ثم أخذته أم الخليفة المقتـــدر ، لحنطته وعطرته ، وأبقته فى خزانتها عاماً كاملا » .

مشاهد روحية ؟

ويروى ماسنيون : « (١) أن الشبلى رأى الحلاج فى المنام بعد قتله فقال له :

ما فعل الله بك ؟ قال : أنزلنى وأكرمنى ، قال : فى أى محل ؟ قال : قد غفر لكلتا الطائفتين ، المشفقين على ، والمعادين لى ، فأما من أشفق على فلأنه عرفنى ، فأشفق على لله ، وأما من عادانى ، فلأنه لم يعرفنى ، فعادانى لله أيضاً ، فهما معذورون !! » .

وتروى المخطوطات الصوفية : « (٢) أن أخته ظلت تبكى عليه أمداً ، ثم نامت ذات ليلة ، فرأت فى المنام أخاها حسيناً ، وهو يقول لها :

يا أختى إلى كم تبكين على !! ؟ فقالت له : كيف لا أبكى وقد جرى عليك الذى جرى !؟ فقال لها :

يا أختى لما قطعوا يدى ورجلى كان قلبي مشغولا بالمحبـــة ، فلم أدر إلا هى طيبة !

فلما صلبونى كنت مشاهداً ربى ، فلم أدر ما فعلوا بى !! فلما أحرقونى نزلت علىّ ملائكة ربى من السماء ، صباح الوجوه ، فاختطفونى إلى تحت

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام ص ٧٧ — ٧٨

(٢) مخطوطات صوفيه نشر ماسنيون . باريس

العرش ، وإذا بالنداء من العلى الأعلى : يا حسين رحم الله من عرف قدره ، وكتم سره ، وحفظ أمره فقلت :

أردت التعجيل إلى رؤيتك . فقال : تملأ بالنظر ، فإنى لا أحتجب عنك .

يا أختى إذا كنتُ فى رياض وبساتين ، وأثمار وأنهار ، هل يطلب أحد بدل ذلك العمار ، هذا الخراب ؟ قالت : لا ، قال : كذلك أرى » .

ولما كان الحلاج قد فنى عن نفسه ، وبقى بربه ، رد بحكم البقاء بعد الفناء إلى البيت — الجسد — ، فلما وجد أن الأكوان قد تحكمت فيه وحلت به المثولات ، أنفته نفسه ، ومن ثَم ، زهد هذه الحياة ، فزهدته الحياة ، فكان العذاب ، وكان القتل أبشع ما يكون القتل .

وانقبض الحلاج عن دخول البيت . وقيل مات الحلاج !!؟ وما مات الحلاج !؟ ولكن البيت خرب ! والساكن ارتحل ! ارتحل إلى البقاء والخلود .

فى أعقاب المصرع ؟

وفى أعقاب المصرع انطلق خيال بغداد ، ليضفى على البطل الشهيد ، نسيجاً أسطورياً من أنسجة القداسة والخلود .

وإن لم يتسق هذا النسيج الموشى مع الحقيقة ، فإنه ليرشد ويومىء ، إلى صور من الحب والإجلال خفق بها قلب بغداد ، وهى تبكى بطلها الشهيد .

يقول ابن خلكان(1) وجعل أصحابه يعدون أنفسهم برجوعه بعد أربعين يوماً ! .

واتفق أن دجلة زادت فى تلك السنة زيادة وافرة ، فادعى أصحابه ، أن ذلك بسبب إلقاء رماده فيها » .

ويقول ابن كثير : « (2) وادعى بعض أصحابه أنه لم يقتل ! وإنما ألقى شبهه على عدو له ! . »

ثم أخذ تلاميذ الحلاج ، يكونون فى الخفاء جماعات روحية حلاجية ، تتدارس تعاليمه ، وتحافظ على تراثه ، وتحاول جاهدة أن تبقى ذكراه حية نامية فى ضمير التاريخ ، متحدية فى ثبات ، وفى فدائية ، الخلافة العباسية ، بكل ما لها من سلطان ساحق ، ونفوذ لا يقاوم .

---

(1) وفيات الأعيان ح ١ ص ٤٠٧

(2) البداية والنهاية ح ١١

سر المأساة !؟

ذلك مصرع الحلاج ، وتلك مأساته !! ويوم المصرع عندى ، هو نقطة الإنطلاق فى حياة الحلاج ، وهو سر خلوده وسحره التاريخى .

وإن كانت آراء الحلاج ، قد اختلف الناس فيها وتجادلوا ، وأطالوا الإختلاف والجدال ، فإن بطولة الحـــلاج وثباته الأسطورى المعجز ، وإيمانه الصامد الصاعد فى يوم مصرعه ليرسم صورة بطولة خالدة متألقة ، أعلى من أن يتجادل الناس فيها أو يختلفوا .

ومن أراد أن يحلق حول شخصية الحلاج ، ويلس إيمانه وحبـه ، وعقيدته ورسالته ، فليبحث عن هـذه المعانى الشامخة فى يوم مصرعه ، وليلتمسها على آلة صلبه وعذابه .

إن هذه البطولة الخارقة ، وهذا الثبات المعجز ، وهذا الإيمان الأعلى إنها مذاقات ومقامات ، لا تفاض إلا على الصديقين والشهداء ، من أصحاب المبادىء والرسالات .

إنها مواقف ليست من عقائد الأرض ولا من شهواتها ، إنها من إيمانيات السماء ووحيها .

وما كان لأبناء الدنيا ، وأصحاب الهوى فى آفاقها ، أن يثبتوا ثبات الحلاج ، وأن يصمدوا لما صمد له .

. وما أحسب أن تاريخ البشرية ، الطويل العريض ، ضم بين صحفه وأحداثه ، إيماناً وثباتاً تحت هول العذاب الصاعق ، كثبات الحـــلاج وصبره وفدائيته وبطولته .

إن يوم المصرع ، هو عنوان الحلاج وتاريخه ، وعنده يلتمس علماء النفس ، وأساتذة الفكر ، شخصية الحلاج ومقامه فى أروقة الخالدين ، من المجاهدين المؤمنين .

إن يوم المصرع ، هو يوم النصر للحلاج ، ويوم الهزيمة الكبرى للخلافة العباسية ، بكل ما تمثله وتصوره فى تلك الحقبة من التاريخ .

لقد هزم الحلاج الخلافة العباسية ، فى حياته وفى استشهاده ، وفى حركة التاريخ وضميره ، من بعد حياته واستشهاده .

لقد حرقت جسده وأحالته رماداً ، ثم نثرت هـذا الرماد فى أقطار السماء ، تريد له الفناء ، فكتب له البقاء .

البقاء الحى أشد ما تكون الحياة ، وأعصى ما تكون هذه الحياة على الزوال والفناء .

لقد أطلقت الخلافة حول سيرته سرادقاً من نار ودخان ، ثم أطلقت المنادين يأمرون الناس ، أن يحرقوا آثاره ، وأن لا يبيعوا كتبه ، وأن يمحوها من الوجود ، وأطلقت من وراء هذا وذاك ، الأقلام المأجورة تملأ كتب التاريخ إفكا وزوراً .

وعجز كل هذا الدخان والضباب ، والتزوير والإفتراء ، عن أن يحجب عن عين التاريخ وذاكرته وصحفـــه البرق المتلألىء من أسطورة البطل الشهيد ، والسنا المتألق من تراث العارف المحب .

يقول المستشرق نيكلسون : « [1] قتل الحلاج وأحرقت رفاته كما تنبأ ، وعبثت برماد جسده الرياح العاصفة ، والمياه الجارية ، ولكن بقيت آراؤه من بعده تعمل عملها ، خلال العصور الوسطى جميعها ، وتحاول أن تحيا حياة جديدة .

وإننا لنتبين قوة هذا الرجل ، وحيويته الروحية ، من الأثر العظيم الذى كان له فى نفوس الأجيال التى أعقبته » .

لقد أعجز الحلاج الخلافة العباسية ، حياً ومصلوباً وشهيداً ، وأحدث أثراً خالداً فى التاريخ .

حتى التهم البغيضة الغليظة ، التى قذفوا بها الحلاج يوم المحاكمة ، أخذت تتساقط سطراً فسطراً ، لتفسح الطريق لوجه الفجر الصادق ، يمحو بنوره كل فجر كاذب ، وكل ادعاء فاجر .

لتفسح الطريق للحقيقة ، الكامنة وراء المأساة الدامية ، فلم تكن الخلافة العباسية ، لتصب كل هذا الهول الفاجر على الحلاج ، لشطحه الصوفى ؟ أو لمروقه الإلحادى ؟ أو لقوله — أنا الحق ؟ — كما حاولت أن تكره الشهود ، وأن تكره القضاه ، وأن تكره التاريخ ، على هذا البهتان والتزوير .

بل صبت هذا الهول الغليظ الفاجر ، دفاعاً عن نفسها ، وعن وجودها ، وعما تمثله ويمثله وجودها ، من شهوات وفجور ، وفساد واستغلال ، ومحاربة للدين والإيمان .

---

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه : ص ١٣٢

كانت محاكمة سياسية ، وكان قتلا سياسياً ، لبس زوراً ثوب الدين ، وتقنع كذباً بقداسته وحمايته .

يقول المستشرق ماسنيون : « فلولا أن الحلاج قد زج بنفسه ، فى التيارات السياسية المضطربة فى عصره ، واتصل بالسياسة ورجالها ، لما حدث له ما حدث ، من تعذيب وصلب ، وما كانت الإتهامات الدينية ، إلا اتهامات رسمية ، لتكون تكأة يستند إليها السلطان » .

ويقول العلامة آدم متز : « [1] وأغلب ما انتهى إلينا من أخبار الحلاج ، إنما ذكره خصومه ، ويؤخذ من هذه الأخبار بوضوح ، أن الحلاج قد أثر فى كبراء أهل بغداد ، تأثيراً قوياً نادر المثال ، ويدل على عظيم شأنه ، أن كلا من الذهبي وابن الجوزى ، كتب عنه كتاباً خاصاً .

ولكن يظهر أن هذين الكتابين ، قد فقدا مع الأسف ، ولم ينل هذا الشرف — أعنى تخصيص كتاب فى حياة رجل — إلا العدد القليل بين رجال الإسلام » .

وكما لمس رجال الإستشراق سر المأساة الحلاجية ، وأنها مأساة سياسية لا دينية ، لمس هذا السر أيضاً بعض رجال التاريخ الإسلامى من قدامى ومحدثين ، لمسوه رغم الجهود الهائلة ، التى بذلتها الخلافة العباسية ، لتشويه تاريخه ، وتزوير أحداثه ، وتمزيق تراثه

فابن النديم : يعلل المأساة بأن الحلاج ، كان على اتصال بالرضا من آل محمد [2] .

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ح ٢ ص ٤٣

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢٦٩

وابن خلكان : يفسرها بصلات الحـــلاج بالقرامطة وبالعلويين وبتهديده للخلافة القائمة(١)

وأما صاحب ظهر الإسلام ، فيفسح صفحات للمأساة ، متهماً الخلافة العباسية بالتزوير والإفتراء .

يقول الأستاذ أحمد أمين : « (٢)والظاهر من كل هذا أن الرجل والمرأة اللذين شهدا على الحلاج ، كان موعزاً إليهما بالشهادة ، وأن القضاة تلكأوا فى الحكم عليه ، فاستعجلهم الوزير حامد !؟

ثم يقول : ويظهر أن أكبر تهمة وجهت اليه ، هو أنه من شيعة أهل البيت ، الذين يريدون أن ينحوا الخلفاء العباسيين ومن إليهم ، ويوسعوا دائرة خلافة أهل البيت ، فانتشرت دعوتهم فى العراق وخراسان وجزيرة العرب وغير ذلك ! .

ثم يقول : فنعتقـد أن هذا سر قتله لا غير ذلك ، فدعوة كهذه تقض مضاجع خلفاء بنى العباس ووزرائهم ، فلا يبعد أن يكون الخليفة العباسى ووزيره حامد ، قد رتبا هذه المؤامرة ضده ، وزوروا الشهود ، واستحثا القضاة على قتله ، وإلا فما بالهم قد تركوا الصوفية الآخرين ، كالجنيد ، وأبى يزيد البسطامى ، وذى النون المصرى ، من غير قتل ، فهى مسألة سياسية بحتة ، اتخذت شكلا دينياً ، لعلمهم أن الدين أفعل فى الشعوب من السياسة .

فكم من صوفية ادعوا وحدة الوجود ، فلم يلتفت إليهم ، وتركوا وشأنهم !

---

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٠٨
(٢) ظهر الإسلام ج ٢ ص ٧٥ — ٧٦

ومما لفت عامة المسلمين إليه ، ما تُواتر عن الحــلاج من إتيانه بالأعاجيب ، فيظهــر أنه كان له قدرة كبعض الأشخاص اليوم ، على استحضــار ما يريده من الأشياء من أماكنها ، كالذهب ، والمسك ، والفاكهة ، وأنه كان له قدرة على التنويم المغناطيسى ، وقدرة أخرى كيماوية بهر الناس بها لجهلهم بالكيمياء .

وعلى العموم ، فهو شخصية قوية كشخصية ذى النون وأشد منها ، كان له أثر كبير فى المسلمين » .

ذلك ضمير التاريخ ، أو ذلك بعض ضميره .

اذهب أنت فى شغلى ، حتى أعينك فى شغلك ! فذهب الرجل ، فلما رجع وجد كل قطعة فى حانوته محلوجة ، فسمى بذلك الحلاج » .

ويقول ابن كثير : « [1]ويقال : أنه أشار بالمرود فامتاز الحب عن القطن » .

ويقول ابن خلكان : « [2]كان يتكلم فى ابتداء أمره من قبل أن ينسب إليه ما نسب من الأسرار ، فيكشف عن أسرار المريدين ويخبر عنها ، فسمى بذلك حلاج الأسرار ، فغلب عليه إسم الحلاج » .

وكتب الطبقات الصوفية تموج موجاً ، بكرامات الحلاج وعجائبه ، وترويها بلغة اليقين الذى لا يدنو منه الشك !.

يقول الحلوانى : « [3]كنت مع الحلاج وثلاثة من تلاميذه ، فى قافلة من واسط إلى بغداد ، وكان الحلاج يتكلم ، فجرى فى كلامه ، حديث الحلاوة ، فقلنا : على الشيخ الحلاوة ! فرفع رأسه وقال :

يا من لم تصل إليه الضمائر ، ولم تمسه شُبه الظنون والخواطر ، وهو المترائى عن كل هيكل وصورة ، من غير مماسة ومزاج ، وأنت المتجلى عن كل أحد ، والمتحلى بالأزل والأبد ، لا توجد إلا عند البأس ، ولا تظهر إلا حال الإلتباس ، إن كان لقربى عندك قيمة ، ولإعراضى لديك عن الخلق مزية ، فائتنا بحلاوة يرتضيها أصحابى ؟

ثم مال عن الطريق مقدار ميل ، فرأينا هناك قطعاً من الحلاوة

---

(١) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٣٣

(٢) وفيات الأعيان

(٣) أخبار الحلاج ص ٢٢

الملونة ، فأكلنا ولم يأكل منها ، فلما استوفينا ورجعنا ، خطر ببالى سوء ظن بحاله ، وكنت لا أقطع النظر عن ذلك المكان ، وحافظته أحوط ما يحافظ مثله .

ثم عدلت عن الطريق للطهارة وهم ذاهبون ، ورجعت إلى المكان ، فلم أر شيئاً فصليت ركعتين وقلت :

اللهم خلصنى من هذه التهمة الدنية ، فهتف بى هاتف : يا هذا أكلتم الحلاوة ، وتطلب الشك !؟ أحسن ظنك ، فما هـــذا الشيخ إلا ملك الدنيا والآخرة » .

ويروى فريد الدين العطار : «[1] أن الحلاج رسم على حائط السجن ، صورة مركب ثم أمر المسجونين بأن يركبوا فيها ، وأن يذكروا إسم الله سبحانه ! فلما فعلوا ، غابوا عن الحبس ، ونجوا جميعاً ! » .

ويحدثنا الشيخ الأكبر محي الدين بن عربى فى الفتوحات ، وحجـــة الإسلام الغزالى فى الإحياء ، أن الحلاج كان يدخل فى بيت له يسميه — بيت العظمة — وكان يتطور فينتفش وينتفخ حتى يملأ هذا البيت !!

أما كتب التاريخ العام ، فتروى عجائب الحلاج ، ثم تحاول فى أثناء روايتها ، أن تعللها متدخلة فى الرواية حيناً ، وملقية بالشك عليها أحياناً .

« .. يروى مسعود بن ناصر قال : سمعت أبا يعـــقوب النهرجورى يقول[2] :

---

(١) تذكرة الأولياء ج ١

(٢) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٥ — ١٢٦

دخل الحسين بن منصور مكة ومعه أربعمائة رجل ، فأخذ كل شيخ من شيوخ الصوفية جماعة ، قال : وكان فى سفرته الأولى كنت آمر من يخدمه ، قال : فنى هـذه الكرة أمرت المشايخ وتشفعت إليهم ليحملوا عنه الجمع العظيم .

قال : فلما كان وقت المغرب جئت إليه ، وقلت له : قد أمسينا فقم بنا حتى نفطر ، فقال : تأكل على أبى قبيس ؟ فأخـــذنا ما أردنا من الطعام وصعدنا إلى أبى قبيس ، وقعدنا للأكل ، فلما فرغنا من الأكل ، قال الحسين بن منصور ، لم نأكل شيئاً حلواً ، فقلت : أليس قد أكلنا التمر ؟ فقال : أريد شيئاً قد مسته النار ! .

فقام وأخذ ركوته وغاب عنا ساعة ، ثم رجع ومعه جام حلواء ، فوضعه بين أيدينا وقال : بسم الله ، فأخـذ القوم يأكلون ، وأنا أقول مع نفسى ، قد أخذ فى الصنعة التى نسبها إليه عمرو بن عثمان ! .

قال : فأخـــذت منه قطعة ونزلت الوادى ، ودرت على الحلاويين أريهم ذلك الحلواء وأسألهم هل يعرفون من يتخذ هذا بمكة ؟ فما عرفوه ، حتى حمل إلى جارية طباخة فعرفته وقالت : لا يعمل هـذا إلا بزبيد ، فذهبت إلى حاج زبيد ـ وكان لى فيه صديق ـ وأريته الحلواء فعرفه ، وقال : يعمل هذا عندنا إلا أنه لا يمكن حمله ، فلا أدرى كيف حمل ، وأمرت حتى حمل إليه الجام ، وتشفعت إليه ليتعرف الخبر بزبيد ، هل ضاع لأحـد من الحلاويين جام ، علامته كذا وكذا ، فرجع الزبيدى إلى زبيد .

وإذ أنه حمل من دكان إنسان حلاوى ، فصح عنـــدى أن الرجل مخدوم ! ! »

وأبو يعقوب النهرجورى راوى القصة ، من الصوفية الذين خاصموا الحلاج ، خصومة مرة عنيفة ، ومن الذين أثاروا حوله الصيحات المرعدة ، واتهموه بالسحر والشعوذة !.

ونمشى مع الجانب المخاصم للحلاج خطوة أخرى ، لنستمع إلى شاهد آخر ، يروى قصة ثانية نسبها إلى مجهول ، أسماه بالمنجم .

وهى قصة كما يقول راويها ، لم تذكر فى حياة الحلاج ، وإنما ذكرت بعد مصرعه !.

يقول صاحب تاريخ بغداد[1] « حدثنا على بن أبى على ، حدثنى أبى قال : أخبرنى أبو بكر محمد بن إسحاق بن إبراهيم الشاهد الأهوازى قال : أخبرنى فلان المنجم — وأسماه ووصفه بالحذق والفراهة — قال : بلغنى خبر الحلاج وما كان يفعله من إظهار تلك العجائب التى يدعى أنها معجزات ، فقلت أمضى وأنظر من أى جنس هى من المخاريق ، فجئته كأنى مسترشد فى الدين ، فخاطبنى وخاطبته ثم قال لى : تَشَهَّ الساعة ما شئت حتى أجيئك به ! وكنا فى بعض بلدان الجبل التى لا يكون فيها الأنهار ، فقلت له : أريد سمكاً طرياً فى الحياة الساعة ! فقال : افعل ، إجلس مكانك فجلست ، وقام فقال : أدخل البيت وأدعو الله أن يبعث لك به .

قال : فدخل بيتاً حيالى وغلق بابه ، وأبطأ ساعة طويلة ثم جاءنى وقد خاض وحلا إلى ركبتيه وماء ، ومعه سمكة تضطرب كبيرة ، فقلت له : ما هذا ؟ فقال : دعوت الله فأمرنى أن أقصد البطائح وأجيئك

(1) ج ٨ ص ١٢٣

بهذه ، فمضيت إلى البطائح ، فحطت الأهواز ، فهـــذا الطين منها حتى أخذت هذه !

فعلمت أنها حيلة ، فقلت له : تدعنى أدخل البيت فإن لم ينكشف لى حيلة فيه آمنت بك ، فقال : شأنك ، فدخلت البيت وغلقته على نفسى فلم أجد فيه طريقاً ولا حيلة ، فندمت وقلت : إن وجدت فيه حيلة فكشفتها ، لم آمن أن يقتلنى فى الدار ، وإن لم أجد طالبنى بتصديقه ، كيف أعمل ؟

قال وفكرت فى البيت فرفعت تأزيره — وكان مؤزراً بإزار ساج — فإذا بعض التأزير فارغاً ، فحركت جسريه منه خمنت عليها ، فإذا هى قد انفلقت ، فدخلت فيها فإذا هى باب ممر ، فولجت فيه إلى دار كبيرة ، فيها بستان عظيم ، فيه صنوف الأشجار والثمار ، والريحان والأنوار ، التى هى وقتها ، وما ليس هو وقته ، مما قد غطى وعتق ، واحتيل فى بقائه ، وإذا الخزائن مفتوحة فيها أنواع الأطعمة المفروغ منها ، والحوائج لما يعمل فى الحال إذا طلب ، وإذا بركة كبيرة فى الدار فخضتها فإذا هى مملوءة سمكاً كباراً وصغاراً ، فاصطدت واحـدة كبيرة وخرجت ، فإذا رجلى قد صارت بالوحل والماء إلى حد ما رأيت رجله !

فقلت : الآن إن خرجت ورأى هـذا معى قتلنى ، فقلت : احتال عليه فى الخروج ، فلما رجعت إلى البيت أقبلت أقول : آمنت وصدقت فقال لى : مالك ؟ قلت : ما هاهنا حيلة ، وليس إلا التصديق بك ، قال : فاخرج فخرجت ، وقد بعـد عن الباب ، وتموه عليه قولى ، فحين خرجت أقبلت أعدو أطلب باب الدار ، ورأى السمكة معى ، فقصدنى وعلم أنى قد عرفت حيلته ، فأقبل يعدو خلفى فلحقنى ، فضربت بالسمكة

صدره ووجهه ، وقلت له : أتعبتنى حتى مضيت إلى البحر ، فاستخرجت لك هذه منه !!

قال : واشتغل بصدره وبعينه وما لحقهما من السمكة ، وخرجت فلما صرت خارج الدار طرحت نفسى مستلقياً لما لحقنى من الجزع والفزع ، فخــرج إلى وضاحكنى وقال : أدخل ، فقلت : هيهات والله لئن دخلت لا تتركنى أخرج أبداً ، فقال : اسمع ، والله لئن شئت قتلك عل فراشك لأفعلن ! ولأن سمعت بهــذه الحكاية لأقتلنك ، ولو كنت فى تخوم الأرض ، وما دام خبرها مستوراً ، فأنت آمن على نفسك ، امض الآن حيث شئت ، وتركنى ودخل ، فعلمت أنه يقدر على ذلك ، بأن يدس أحد من يطيعه ويعتقد فيه ما يعتقده فيقتلنى ، فما حكيت الحكاية إلى أن قتل !! » .

وقصة ثالثة ، يبــدو فيها الراوية ، متهكماً ماجناً ساخراً من كل القيم الإنسانية .

يقول صاحب تاريخ بغداد « (1) أخبرنا على بن أبى على عن أبى الحسن أحمد بن يوسف الأزرق : أن الحسين بن منصور الحلاج ، لما قدم بغداد يدعو ، استغوى كثيراً من الناس والرؤساء ، وكان طمعه فى الرافضــة أقوى لدخوله من طريقهم .

فراسل أبا سهل بن نوبخت يستغويه ، وكان أبو سهل من بينهم مثقفاً فهماً فطناً ، فقال أبو سهل لرسوله : هذه المعجزات التى يظهرها قد تأتى فيها الحيل ، ولكن أنا رجل غزل ، ولا لذة لى أكبر من النساء وخلوتى

---

(1) ج ٨ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦

بهن ، وأنا مبتلى بالصلع ، حتى أنى أطول قحفى وآخذ به إلى جبينى ، وأشده بالعمامة ، وأحتال فيه بحيل ، ومبتلى بالخضاب لستر المشيب ، فإن جعل لى شعراً ورد لحيتى سوداء بلا خضاب ، آمنت بما يدعونى إليه كائناً ما كان !.

إن شاء قلت : إنه باب الإمام ! وإن شاء الإمام ! وإن شاء قلت إنه النبي ، وإن شاء قلت : إنه الله !.

قال فلما سمع الحلاج جوابه آيس منه ، وكف عنه ، قال أبو الحسن : وكان الحلاج يدعو كل قوم إلى شيء من هذه الأشياء التى ذكرها أبو سهل ! ».

ثم يقول : « وأخبرنى جماعة من أصحابنا أنه لما افتتن الناس بالأهواز وكورها بالحلاج ، وما يخرجه لهم من الأطعمة والأشربة فى غير حينها ، والدراهم التى سماها دراهم القدرة ، حدثت أبو على الجبائى بذلك ، فقال لهم : هذه الأشياء محفوظة فى منازل يمكن الحيل فيها ، ولكن أدخلوه بيتاً من بيوتكم لا من منزله هو ، وكلفوه بأن يخرج منه جزرتين فإن فعل فصدقوه.

فبلغ الحلاج قوله ، وأن قوماً قد عملوا على ذلك ، فخرج عن الأهواز ! ».

وتمضى قصص الخصوم هادفة بجرحة ، يصعد بها الرواة إلى راوى أخير ، لا يذكر إسمه ، وإنما يذكر نعته ، وهو أنه من الثقاة !.

يقول الخطيب البغدادى(١) : « أنبأنا على بن أبي على المعدل عن

(١) تاريخ بغداد ح ٨ ص ١٢٢ ـ ١٢٣

أبى الحسن أحمد بن يوسف الأزرق ، قال : حدثنى غير واحد من الثقات من أصحابنا : أن الحسين بن منصور الحلاج ، كان قد أنفذ أحد أصحابه إلى بلد من بلدان الجبل ، واقفه على حيلة يعملها ، فخرج الرجل فأقام عندهم سنين يظهر النسك والعبادة ، ويقرأ القرآن ويصوم ، فغلب على البلد حتى إذا علم .أنه قد تمكن أظهر أنه قد عمى ، فكان يقاد إلى مسجده ، ويتعامى عن كل أحد شهوراً .

ثم أظهر أنه قد زمن ، فكان يحبو ويحمل إلى المسجد حتى مضت سنة على ذلك ، وتقرر فى النفوس زمانته وعماه ، فقال لهم بعد ذلك : إنى رأيت فى النوم كأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول لى : إنه يطرق هذا البلد عبد صالح مجاب الدعاء ، يكون عافيتك على يده وبدعائه ، فاطلبوا إلى كل من يجتاز من الفقراء ، أو من الصوفية ، فلعل الله أن يفرج عنى على يد ذلك العبد وبدعائه ، كما وعدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتعلقت النفوس إلى ورود العبـــد الصالح ، وتطلعته القلوب ، ومضى الأجل الذى كان بينه وبين الحلاج ، فقدم البلد فلبس الثياب الصوف الرقاق ، وتفرد فى الجامع بالدعاء والصلاة ، وتنبهوا على خبره ، فقالوا للأعمى ، فقال : احملونى إليه ، فلما حصل عنده وعلم أنه الحلاج ، قال له : يا عبد الله إنى رأيت فى المنام كيت وكيت ، فتدعو الله لى ، فقال : ومن أنا وما محلى ؟ فما زال به حتى دعا له ثم مسح يده عليه ، فقام المتزامن صحيحاً مبصراً ! فانقلب البلد وكذا الناس على الحـلاج ، فتركهم وخرج من البلد ، وأقام المتعامى المتزامن فيه شهوراً ، ثم قال لهم : إن من حق نعمة الله عندى ، ورده جوارحى علىّ أن انفرد بالعبادة انفراداً أكثر من هذا ، وأن يكون مقامى فى الثغر ، وقد عملت على الخروج إلى طرسوس ، فمن كانت له حاجة تحملتها ، وإلا فأنا أستودعكم الله ، قال :

فأخرج هذا ألف درهم فأعطاه ، وقال أغزبها عنى ، وأعطاه هذا مائة دينار ، وقال : أخرج بها غزاة من هناك وأعطاه هذا مالا ، وهذا مالا ، حتى اجتمع ألوف دنانير ودراهم ، فلحق بالحلاج فقاسمه عليها ! »

ولا يكتفى خصوم الحلاج بهذا ، بل يضعون على لسانه ، كلمات يتهم فيها نفسه ، بأنه يتعلم السحر ، ولماذا يتعلمه ، ليدعو به الخلق إلى الله !

يقول صاحب تاريخ بغداد(١) « سمعت على بن أحمد الحاسب قال . سمعت والدى يقول : وجهنى المعتضد إلى الهند لأمور أتعرفها ليقف عليها ، وكان معى بالسفينة رجل يعرف بالحسين بن منصور ، وكان حسن العشرة طيب الصحبة ، فلما خرجنا من المركب ونحن على الساحل ، والحمالون ينقلون الثياب من المركب إلى الشط ، فقلت له : إيش جئت إلى هنا ؟ قال : جئت لأتعلم السحر ، وأدعو الخلق إلى الله تعالى .

قال : وكان على الشط كوخ وفيـــه شيخ كبير ، فسأل الحسين بن منصور ، هل عندكم من يعرف شيئاً من السحر ؟ قال : فأخرج الشيخ كبة غزل ، وناول طرفه الحسين بن منصور ، ثم رمى الكبة فى الهواء ، فصارت طاقة واحدة ، ثم صعد عليها ونزل ، وقال للحسين بن منصور : مثل هذا تريد ؟ ثم فارقنى ولم أره بعد ذلك إلا ببغداد » .

ويقول أيضاً(٢) : « . . أنبأنا إسماعيل بن أحمد الحيرى قال : قال المزين : رأيت الحسين بن منصور فى بعض أسفاره فقلت له : إلى أين ؟ فقال : إلى الهند أتعلم السحر ، أدعو به الخلق إلى الله عز وجل ! » .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٠
(٢) » » » ص ١٢٠

يقول الأستاذ عبد الحكيم حسان : « [1]يحمل على تكذيبها أنها مما روى بعد محنة الحلاج ، ومما يرجح ذلك أن الراوى الأول ، وهو والد على بن أحمد الحاجب ، كان موظفاً فى قصر المعتضد ، ومركزه يحتم عليه نصرة المذهب السنى الذى يعمل القصر والحكومة على حمايته ، وأن الراوى الثانى ، هو أبو الحسن على بن محمد المزين ، وهو من خصوم الحلاج » .

حتى الروايات التاريخية ، التى تنطق بصدق الحلاج وترفعه ، ونفوره مما ينسب إليه من الخوارق ، يحاول الرواة إرضاء للسياسة العامة ، أن يعقبوا عليها بكلمات الشك والتجريح !!

يقول الخطيب البغدادى[2] : « أنبأنا على بن أبى على البصرى ، أخبرنى أبى قال : حدثنى أبو الحسن محمد بن عمر القاضى ، قال : حملنى خالى معه إلى الحسين بن منصور الحلاج ، وهو إذ ذاك فى جامع البصرة يتعبد ويتصوف ويقرأ ، قبل أن يدعى تلك الجهالات ويدخل فى ذلك ، وكان أمره إذ ذاك مستوراً ، إلا أن الصوفية تدعى له المعجزات من طريق التصوف ، وما يسمونه مغوثات ، لا من طريق المذاهب .

قال : فأخذ خالى يحادثه وأنا صبى جالس معهما أسمع ما يجرى ، فقال لخالى : قد عملت على الخروج من البصرة » فقال له خالى : لِمَ ؟ قال : قد صير لى أهل هذا البلد حديثاً ، فقد ضاق صدرى وأريد أبعد منهم ، فقال له مثل ماذا ؟ قال : يرونى أفعل أشياء فلا يسألونى عنها ، ولا يكشفونها ، فيعلمون أنها ليست كما وقع لهم ، ويخرجون فيقولون : الحلاج مجاب الدعوة ، وله مغوثات ، قد تمت على يده ألطاف ، ومن

---

(١) التصوف فى الشعر العربى ص ١٤١

(٢) تاريخ بغداد ح ٨ ص ١١٩ ــ ١٢٠

أنا حتى يكون لى هذا ؟ بحسبك أن رجلا حمل إلى منـــذ أيام دراهم وقال لى : اصرفها إلى الفقراء فلم يكن يحضرنى فى الحال أحد ، فجعلتها تحت بارية من بوارى الجامع إلى جنب اسطوانة عرفتها، وجلست طويلا فلم يجئنى أحد ، فانصرفت إلى منزلى وبت ليلتى ، فلما كان من غد جئت إلى الإسطوانة وجعلت أصلى ، فاحتف بى قوم من الفقراء ، فقطعت الصلاة وشلت البارية فأعطيتهم تلك الدراهم ، فشنعوا على بأن قالوا . إنى إذا ضربت يدى إلى التراب ، صار فى يدى دراهم ، قال وأخذ يعدد مثل هذا ، فقام خالى عنه وودعه ولم يعد إليه وقال : هـذا مُتَمَسِّس وسيكون له بعد هذا شأن ، فما مضى إلا قليل حتى خرج من البصرة وظهر أمره » .

يقول طاهر بن أحمد التسترى : « (1) تعجبت من أمر الحلاج ، فلم أزل أتتبع وأطلب الحيل ، وأتعلم النيرنجات لأقف على ما هو عليـه ! فدخلت عليه يوماً من الأيام ، وسلمت وجلست ساعة ، ثم قال لى :

يا طاهر لا تتمنّ ، فإن الذى تراه وتسمعه من فعل الأشخاص لا من فعلى ، لا تظن أنه كرامة ، أو شعوذة ؟ فصح عندى أنه كما يقول » .

ويقول أبو العباس الرزاز : « قلت لأبى العباس بن عطاء : ما تقول فى الحسين بن منصور ؟ فقال : ذاك مخدوم من الجن ؟ قال فلما كان بعد سنة ، سألته عنه ، فقال : ذاك من حق ؟ فقلت له :

قد سألتك عنه قبل هـذا فقلت : مخدوم من الجن ، وأنت الآن تقول هذا ! فقال : نعم ، ليس كل من صحبنا يبقى معنا ، فيمكننا أن

---

(1) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٦

لشرفه على الأحوال ! وسألت عنه وأنت فى بدء أمرك ، وأما الآن وقد تأكد الحال بيننا ، فالأمر فيه ما سمعت[1] » !

وأبو العباس بن عطاء ، يزيد الأمر غموضاً وإيهاماً ، فيجعل من عجائب الحلاج ، أو من كراماته سراً يجب أن يصان ، وأن يضن به على غير أهله .

ومصرع الحلاج أيضاً ، تحيط به الخوارق أو الكرامات ، كما يتحدث الرواة ، فجسده يبقى ساعات حياً بعد قطع رأسه ؟ ودمه يخط على الأرض .. لا إله إلا الله !

وعندى أن أروع خوارق الحلاج أو كراماته ، هى فدائيته وبطولته الصادرة فى إيمان عميق ، وثبات رهيب ، وصبر معجز ، أمام هول من العذاب لا يحتمله بشر !

لم يضعف ، ولم يهن ، ولم يتراجع ، ولم يغفل لسانه أو قلبه ، لحظة أو سانحة عن ذكر الله ، والتغنى بحبه .

والحلاج بعد هذا من أصحاب الرياضات والمجاهدات ، بل هو قمة شامخة فى المجاهدات والرياضات الروحية ، حمل نفسه فيها على الصعب الأشق ، وهى طريق ينبت دائماً ، هذه الخوارق ، أو هذه الكرامات .

والخارقة أو الكرامة ، من الأمور التى يكاد الإجماع ينعقد على جوازها للصفوة الممتازة المختارة ، من المؤمنين البررة ، يجريها الله سبحانه على أيديهم ، تثبيتاً لهم ، أو إظهاراً لمقامهم ، فضلا منه سبحانه وكرماً .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٠

والصوفية يجعلون الكرامة ، من طبيعة حياتهم الروحية المضيئة ، ويقولون أن الولاية لم يدعها فى الإسلام سواهم ، وهى آية صدقهم وتقواهم.

ولكن الصوفية مع هذا لا يكبرون من شأن الكرامة ، ولا يعتزون بالخارقة ، بل يرونها من أنواع الإبتــــلاء ، وأن الوقوف معها من علامات النقص .

والكرامة الكبرى عندهم ، هى ترقيهم فى معارج الكمال الخلق والروحى ، وثباتهم فى هذه المعارج ، وتذوقهم لهـا ، مع حفظ جوارحهم وقلوبهم وألسنتهم حفظاً ربانياً ، هو علامة الرضا ، وآية القبول ، ودليل الكرامة الأعلى .

يقول سهل بن عبد الله التسترى : « أكبر الكرامات ، أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود » .

ويقول أبو القاسم الجنيد : « إن الإتكال على الكرامات أحد الحجب التى تمنع المختار من النفوذ إلى صومعة الحق المحجبة » .

ويقــــول أبو الحسن الخرقانى : « الكرامات أول مراحل ألف فى الطريق إلى الله » .

EL - HALLAGE

HOSEIN BEN MANSOUR

In Arabic

By

Taha Abdul Baki Sourour

Editor

AL-ELMIEAH

50, Algamhouria Street

Cairo 1961

الثمن ٥٠٠ مليم

Price 10 sh.